أوراق
AWRAK

أوراق
AWRAK
العدد رقم (٢)
سلسلة تصدر عن وحدة الدراسات المستقبلية بمكتبة الإسكندرية

رئيس مجلس الإدارة
إسماعيل سراج الدين

رئيس التحرير
خالد عزب

سكرتارية التحرير
أمنية الجميل
محمد العربي
آية رضوان

مدير إدارة النشر
نهى عمر

التدقيق اللغوي
رانيا يونس

الإخراج الفني
أحمد بهجت

الآراء الواردة في هذا الكتاب لاتعبّر بالضرورة عن وجهة نظر مكتبة الإسكندرية، إنما تعبّر عن وجهة نظر المؤلف.

سلسلة أوراق

العدد ٢١

الدراسات المستقبلية: إطار مفاهيمي

تأليف: ريتشارد أ. سلوتر

ترجمة: خلود سعيد

وحدة الدراسات المستقبلية

مكتبة الإسكندرية

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

مكتبة الإسكندرية بيانات الفهرسة– أثناء – النشر (فان)

سلوتر، ريتشارد أ.، ١٩٤٥–

الدراسات المستقبلية : إطار مفاهيمي / تأليف ريتشارد أ. سلوتر ؛ ترجمة خلود سعيد. – الإسكندرية، مصر : مكتبة الإسكندرية، وحدة الدراسات المستقبلية، ٢٠١٦.

ص. سم. (أوراق ؛ ٢١)

يشتمل على إرجاعات ببليوجرافية.

تدمك 978-977-452-366-7

١. المستقبلية. ٢. التغير الاجتماعي. ٣. الثقافة. أ. سعيد، خلود. ب. مكتبة الإسكندرية. وحدة الدراسات المستقبلية. ج. العنوان. د. السلسلة.

ديوي – ٣٠٣,٤٩ ٢٠١٦٨٠٦٩١٨

ISBN: 978-977-452-366-7

رقم الإيداع: 11379/2016

© 2016 مكتبة الإسكندرية

الاستغلال غير التجاري

تم إنتاج المعلومات الواردة في هذه الكراسة؛ للاستخدام الشخصي والمنفعة العامة لأغراض غير تجارية، ويمكن إعادة إصدارها كلها أو جزء منها أو بأية طريقة أخرى، دون أي مقابل ودون تصاريح أخرى من مكتبة الإسكندرية.

وإنما نطلب الآتي فقط:

- يجب على المستغلين مراعاة الدقة في إعادة إصدار المصنفات.
- الإشارة إلى مكتبة الإسكندرية بصفتها «مصدر» تلك المصنفات.
- لا يعتبر المصنف الناتج عن إعادة الإصدار نسخة رسمية من المواد الأصلية، ويجب ألا ينسب إلى مكتبة الإسكندرية، وألا يُشار إلى أنه تمّ بدعم منها.

الاستغلال التجاري

يحظر إنتاج نسخ متعددة من المواد الواردة في هذه الكراسة، كلها أو جزء منها، بغرض التوزيع أو الاستغلال التجاري، إلا بموجب إذن كتابي من مكتبة الإسكندرية، وللحصول على إذن لإعادة إنتاج المواد الواردة في هذه الكراسة، يُرجى الاتصال بمكتبة الإسكندرية، ص.ب. ١٣٨، الشاطبي ٢١٥٢٦، الإسكندرية، مصر.

البريد الإلكتروني: secretariat@bibalex.org

المحتويات

المقدمة.. ٩

الجزء الأول: نحو رؤية اجتماعية مستقبلية.............................. ١١

الجزء الثاني: مفاهيم المستقبليات.. ١٩

نبذة عن المؤلف.. ٦٥

صدرت ورقة مختصرة من هذا البحث في دورية *Futures* العدد ٢٥ رقم ٣ لعام ١٩٩٣ صفحات ٢٨٩– ٣١٤. وهذا البحث هو أصلاً فصل من كتاب *The Knowledge Base of Future Studies, Volume 1: Foundations* وورقة توجيهية لـ Christian Futures Consultation في الفعالية التي عُقدت بتاريخ ٢٠ و٢١ يوليو ٢٠٠٣ بسان فرنسيسكو، الولايات المتحدة الأمريكية بعنوان «هل وزارتكم مستعدة للمستقبل؟».

المقدمة

يتميز مجال المستقبليات بأفكاره وأدبياته وتنوع مناهجه، لكن يقل الاهتمام بلغته ومفاهيمه. وكلما عملت فيه أكثر رأيتهما – اللغة والمفاهيم – كنقطتي قوة. يعد نقص وجود مفاهيم محددة للمستقبليات من أولى الصعوبات التي تواجه طلاب الدراسات المستقبلية. تذهب هذه الورقة إلى أن وجودها حيوي للغاية. ويُعنى الجزء الأول منها بدور المفاهيم كأسس للرؤية المستقبلية الاجتماعية؛ أما الجزء الثاني فيناقش مختارات من مفاهيم المستقبليات.

تُوفِّر مفاهيم المستقبليات والخطاب الذي تدعمه المصادر التي يحتاجها مجال المستقبليات للتخطيط والابتكار الاجتماعي وخلق مشروعات جديدة، كما تساهم في تمكين الناس من تحديد مستقبلهم بأنفسهم. ولكن بدون معرفة عملية بهذه المواد الرمزية، لا يُمكِن استيعاب مجال المستقبليات. وتعد هذه المشكلة المدخلية أحد معوقات إدراك المجال ومعرفته بتوسُّع. وبالرغم من هذا، فإن أحد فوائد مفاهيم المستقبليات تلقي الضوء على نظم واختيارات كانت غير معروفة وغير مرئية وضبابية[١].

يُمكِن لأشخاص عدة استخدام مفاهيم المستقبليات على نطاقٍ واسع، وبهذا يتمكنون من المساهمة في التحولات الإدراكية الهامة التي يعتمد عليها مستقبلنا. أرى أن أثمر المفاهيم أبسطها، أي المتاحة للشباب، ولكن القابلة للتوضيح باستفاضة عند اللزوم أيضًا. أزعم أن نظم المعاني الواضحة والقوية تنبع من نقاط بداية بسيطة للغاية، كما يتضح من الأقسام الآتية.

تلقي الورقة نظرة عامة على عشرين مفهومًا أو مجموعة مفاهيم[٢]. بالطبع ترتقي مفاهيم أخرى كثيرة للتضمين في هذا السياق، يُمكِن الجدل باستمرار حول تحديد المفاهيم الأساسية. ربما يكون لهذا الجدل بعض الفائدة، ولكنه غالبًا لن يصل لنتيجة باعتبار الطبيعة المفتوحة واللانهائية للمجال وحدوده المرنة. تُعتبر أمثلة مفاهيم المستقبليات المستخدمة هنا إذًا مشروطة ومؤقتة.

(١) لمزيد من التفاصيل حول المشاكل والتحولات المتضمنة، انظر:
Rogers Marta and Allen Tough, "What Happens When Students Face the Future?" *Futures Research Quarterly* 8, no. 4 (Winter 1992): 9-18.

(٢) Richard A. Slaughter, *Futures Concepts and Powerful Ideas*, 2nd ed. (Melbourne: Futures Study Centre, 1996).

الجزء الأول: نحو رؤية اجتماعية مستقبلية

للوهلة الأولى، تبدو المستقبليات كمجالٍ إشكالي جدًّا؛ وربما يتعجب البعض كيف يُمكِن دراسة شيء غير موجود بالأصل. ولكن لدى علماء المستقبليات عدة طرق للرد على هذه التحديات؛ فيُمكِن مثلاً الإشارة إلى أن دراسات المستقبليات ليست الوحيدة التي تتعامل مع غير الملموس؛ فعلم الجمال والموسيقى والقانون والأخلاق والدين كلها تتعامل مع ظواهر غير مادية، ولكن لا يُمكِن التقليل من إسهامها في الفهم والإدراك الإنساني. يقول البعض إن دراسات المستقبليات تهتم بالأساس بالأفكار والمشاعر والأهداف المعاصرة التي ربما تُؤثر على المستقبل؛ بينما يجادل آخرون أن المعرفة البديلة أو التأويلية يُمكِن أن تحل محل الحقائق المستقبلية، وهي الرؤية المعتمدة في هذه الورقة. أشير إلى المستقبل باعتباره أحد مبادئ الفعل الحاضر؛ حيث يلقي المصطلح الضوء على التفاعلات الحركية بين الماضي والحاضر والمستقبل. ولكن يظل المستقبل تجريديًّا لمعظم الناس. تكتظ الثقافة الشعبية بالصور النمطية عن المستقبل، ولكن قليلون من يأخذونها بجدية لاستكشاف المدى الواسع للصور والسيناريوهات والتواريخ المستقبلية المتوفرة. توجد بالطبع أفكار ومشروعات ومؤسسات واقعية تدعم الدراسات المستقبلية، ولكنها تبقى نادرة. بالنسبة للغالبية إذًا، يبقى المستقبل مساحة خالية بالمقارنة بتأثيره على حياتهم اليومية وقراراتهم وسلوكهم الشخصي والمهني، وبالتبعية على المعايير والأولويات والممارسات الاجتماعية.

ولهذه الأسباب لازالت الحكومات حول العالم تتمسك بالأفق الضيق قصير المدى للانتخابات التالية، وقليل من الاهتمام – إن وجد – بالتبعات طويلة المدى للنقلة النوعية قيد الحدوث أو الوعي بالتحول الكبير الذي يواجه الجنس البشري في القرن الواحد والعشرين. كيف يُمكِن إذًا للمستقبل المجرَّد ظاهريًّا أن يصبح أوقع وجزءًا لا يتجزأ من حياتنا اليومية؟ لا أعتقد أنه يمكننا تحقيق ذلك بمراسيم أو تهديدات أو تبسيط المستقبليات الشعبية. نحتاج إلى استراتيجية مختلفة تعترف بالصفات متعددة المستويات لقدرات المستقبليات التطبيقية

نموذج أساس الدراسات المستقبلية

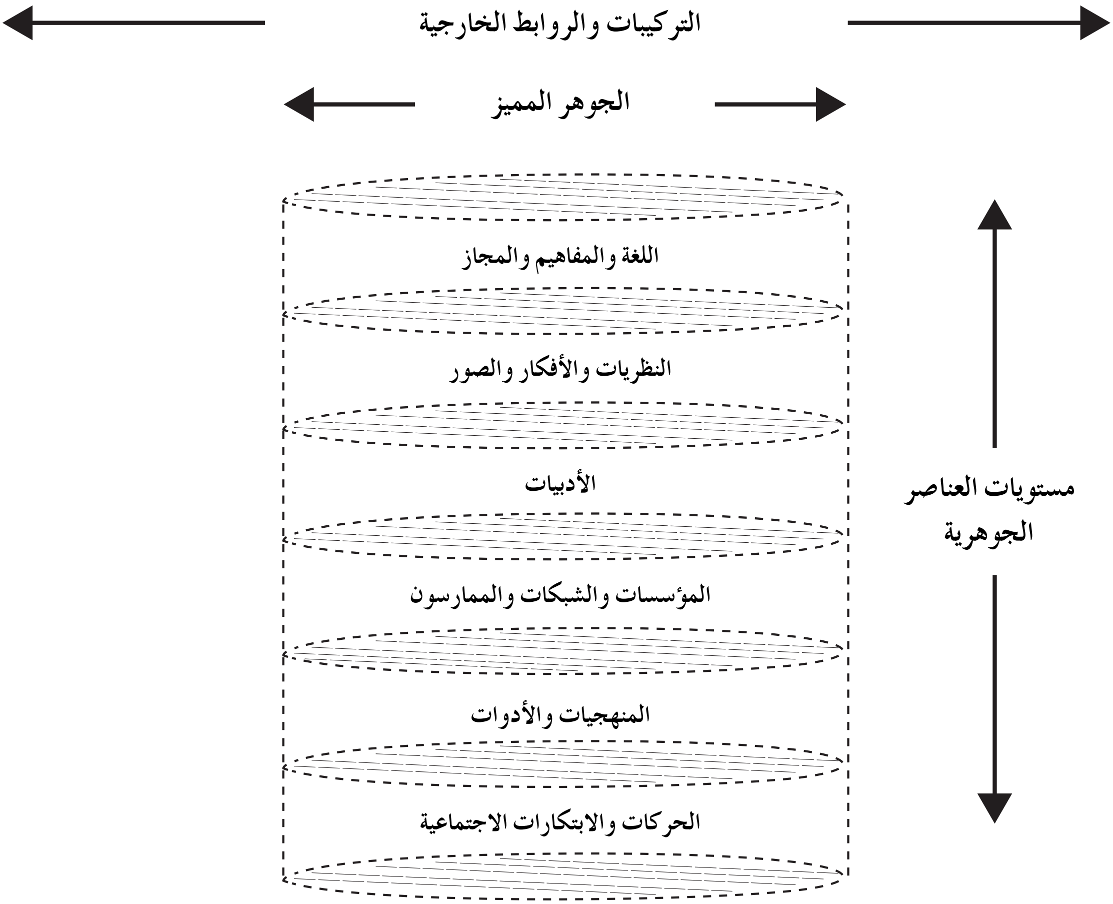

شكل (١)

(انظر شكل ١)، وهي المستويات التي يُمكِن بناؤها من القواعد على فترة من الزمن. يُبيِّن هذا القسم دور القدرات الإنسانية والمفاهيم المستقبلية في هذه العملية.

ثبت أن العقل البشري موهوب بالقدرة على فهم انعكاسي للوقت، وليس فقط وعي مبدئي به؛ أي الوعي بالظاهرة الواقعية الآنية. يتميز هذا الوعي بالقدرة على التذكر والتعلم، وبالتجول الواعي في حاضر غني ومركب وممتد، وفهم المسئوليات والتبعات، وتأمل المستقبليات الآتية. يقول إيدلمان: «يسمح تحرر أجزاء الفكر الواعي من قيود الحاضر الحالي والثراء المتزايد للتواصل الاجتماعي بتوقع حالات مستقبلية وسلوك مُخطط. تأتي هذه القدرة مع قدرات لنمذجة العالم ووزن النتائج وعقد مقارنات واضحة يُمكِن من خلالها إعادة تنظيم الخطط. ولهذه القدرات، بالضرورة قيم قابلة للتكيف»[٣].

دراسات المستقبل كملكية منبثقة من نظام العقل – المخ البشري.

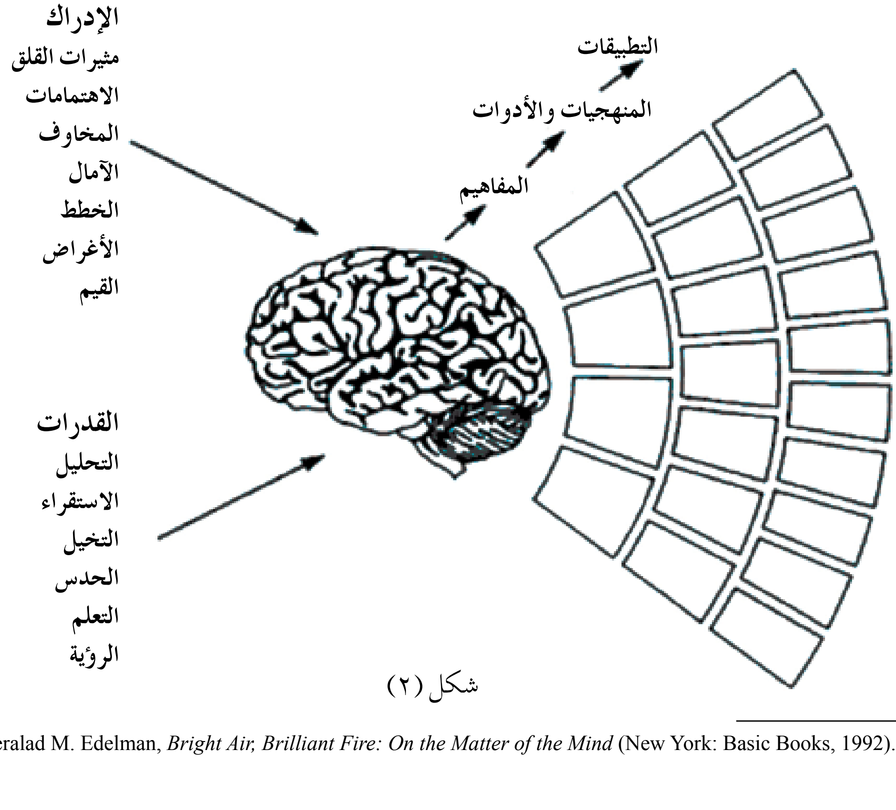

شكل (٢)

(٣) Geralad M. Edelman, *Bright Air, Brilliant Fire: On the Matter of the Mind* (New York: Basic Books, 1992).

للبشر إذًا قـدرة فطرية على التأمل والاستبصار والنمذجة والاختيار بين بدائل. ليسوا محاصرين في عالم حتمي؛ بل متموضعين بوعي في بنية وقوى ورؤى مصفوفة مُشكلَة اجتماعيًّا، ولكنها متحققة ذاتيًّا. ولهذه الأسباب يتمتع البشر بقدرة على التفكير ليس فقط في المستقبل (بشكلٍ مجرد) ولكن في المستقبليات المتعددة (وما يستلزمه من اختيارات وبدائل). وعلىً عكس الجسد البشري المحدود بالضرورة بالعملية الأحيائية (البيولوجية) – التي يُطلِق عليها ج. ت. فرازير «حاضر المخلوق» – يتمتع العقل والخيال والروحِ بحرية التجول بين رؤى العالم في الماضي والحاضر والمستقبل. قليلون من يأخذون قسطًا من الوقت للامتنان بهذه المعجزة الأحيائية.

يُوفِّر نظام العقل البشري، ببساطة، تركيبًا وتضمينًا يتيح ثلاثة أنواع من الرحلات على الأقل: فهو يسمح بإعادة النظر في البيئات السابقة التي لم يكن مسموحًا للأفراد بتجربتها مباشرةً، ويخلق معرفة وفهمًا للأحداث التي تقع في الحاضر التاريخي ولكنها خارج المكان؛ (مثل الوعي المكتسب من مشاهدة برنامج إخباري)، ويسمح برؤية مستقبلية؛ نظرة بانورامية على مستقبليات بديلة متعددة.

لهذه الأسباب يتضمن الشكل (٢) قدرات ورؤى كنقطتي بداية للاستبصار الاجتماعي؛ وهما الصفتان الإنسانيتان اللتان تستبطنان القدرة على التفكير المستقبلي. ولهذا يمتلك جميع الأشخاص القدرة على الاستبصار والتفكير المستقبلي والتصرف المسئول والمبني على اعتبارات طويلة المدى.

تطوير قدرة اجتماعية على الاستبصار

أثقلت حكايات الأطفال الذين نشأوا في ظروف صعبة الرؤية القائلة بضرورة تربية الصغار في أسرة مهتمة، وضرورة تقديمهم إلى عالم اللغات والثقافات الاجتماعي الرمزي؛ من أجل إنسان حقيقي. لسوء الحظ، يتشبع معظم من شبوا في ثقافات غربية أو مستغربة بافتراضات نمطية تتضمن مفاهيم التفوق الثقافي، والطبيعة كموارد، والنمو بوصفه خيرًا قطعيًّا، وأولوية العلوم والتكنولوجيا، وسلطوية الماضي، والاستبعاد الاعتيادي للمستقبل(٤).

تقترح دراسات المستقبليات النقدية أن مثل هذا الفهم الثقافي المتضمَّن يشارك بفعالية في ظهور الإشكالية العالمية والحفاظ عليها في جميع أبعادها. يعتمد كل جيل، إذًا، مثل هذه الالتزامات والافتراضات التي تساعد على إدامة النظام العالمي غير المستدام. ولكن، باعتبار انعكاس وعي النظام الأعلى، يُمكِن للأشخاص فحص افتراضاتهم المسبقة وتغيرهم إذا اتضحت الأدلة. ليس هذا بالأمر السهل، ولكنه قطعًا ممكن مع مرور الوقت. حين وقوع هذه العملية، يظهر تحليل بخصوص المأزق العالمي للإنسان. يساعد هذا الإدراك الناتج على توفير حافز لظهور خطابي مستقبلياتي. بتعلُّم هذا، تتضح مختلف جوانب أبعاد المستقبليات أكثر وتتصل مع الماضي.

يتأثر المجتمع بشدة بعددٍ من الخطابات السائدة والتي تُلائم تأطير الموضوعات والمآخذ الحالية. يُعد الاقتصادُ أحد هذه الخطابات السائدة التي تستخدمها الحكومة للتشريع والتحكم واتخاذ القرار وإدارة الموارد. تظن افتراضاتها المسبقة الوفيرة بوجود عالم بلا حدود وقطعًا بلا مستقبل. وتقول بشكلٍ أساسي: اشتر، واستهلك، واستخدم، واستنفد كل ما تريده بأية كمية ولا تفكر في المستقبلِ البتة. ولكن، بُني هذا الخطاب على افتراضات مشكوك فيها يُجدل أنها تُوفِّر إشارات خاطئة لكل من يستخدمها. فعلى سبيل المثال، انتقد

(٤) لنقد مُفصَّل للرؤية الغربية للعالم، انظر:
Richard A. Slaughter, *The Foresight Principle Cultural Recovery in the 21st Century*, Praeger Studies on the 21st Century. Adamantine Studies on the 21st Century 13 (Westport, CT: Praeger, 1995).

المستقبليون – وعلماء آخرون – بشدة افتراضات تتعلق بالناتج القومي الإجمالي ونمو وفعالية آليات السوق[٥].

يُعد الخطاب الأكاديمي أحد الخطابات الأخرى السائدة؛ فهو خطاب محافظ ومرتبط بشدة بالإبقاء على الحدود والتحكم في إنتاج المعرفة. وتقترح حقيقة أن الخطاب التاريخي، وليس خطاب المستقبليات، متضمَّن بقوة في الأوساط والخطابات الأكاديمية أن تلك الأخيرة تُقدِّر قيمة الماضي أكثر من المستقبل.

وعلى النقيض، تقف مجموعة من الخطابات الجديدة الناشئة في مراحل مختلفة من عملية الشرعنة؛ مثل خطاب السلام والخطاب البيئي والخطاب النسوي، والتي تحاول جميعها شرعنة اهتمام مُعين من خلال اللغة. يشترك خطاب المستقبليات في هذه الحاجة إلى الحصول على القبول والشرعية، ولكنه ربما يكون أقل تركيزًا على الحصول على أهداف ثقافية مُحددة لجمهور ناخبين بعينه. ربما تتضمن بعض هذه الأهداف دعم تحول شامل من تفكير المدى القصير إلى تفكير المدى الطويل، واستكشاف طبيعة التحول إلى الاستدامة[٦]. ولكن، بعد تجاوز هذه الأهداف، لا يظهر خطاب المستقبليات مكتسبًا بالتقادم. ربما يكون أحد الأسباب أن مفاهيم البدائل تقل بالمقارنة به. وبالرغم من ذلك، يُعد نقص خطاب المستقبليات في المجتمع أحد العوامل المعيقة للتغير التكيّفي. وعلى الناحية الأخرى، يُعد الاشتراك الشعبوي المُوسَّع في هذا الخطاب أحد أقوى وسائل التعامل مع إشكاليات الحاضر والمستقبل القريب التي تبدو مستعصية.

يشرح ما سبق – بالرغم من عدم اكتماله – أنه بدون خطاب مستقبلياتي قائم على تفكير نقدي مُعمق وتحليل نموذجي وفهم ثقافي، يبقى المستقبل بعيدًا عن العين ومن ثَمَّ بعيدًا عن القلب والعقل. تبقى الاحتمالات الغنية للفهم وإعادة تصور جوانب المأزق العالمي، بالإضافة إلى تطوير استراتيجيات تهدف إلى نتائج مُختارة بوعي، مُتجاهلة. ماذا يُمكِن عمله

(٥) Hazel Henderson, *Paradigms in Progress: Life Beyond Economics*, Adamantine Studies on the 21st Century 11 (London: Adamantine, 1993).

(٦) يُقدم دوج ميكانزي – موهر وميشيل ماريان مراجعة ممتازة لهذين الهدفين، انظر:
Doug Mckenzie-Mohr and Michael Marien, eds.,“Visions of Sustainability”, *Futures* 26, no. 2 (Mar 1994).

إذًا؟ أفنى العلماء وقتًا وجهدًا لإتاحة مفاهيم وأفكار المستقبليات بتوسع؛ اعتقادًا منهم أنهم بذلك يدعمون القدرات الاجتماعية لاستخدام وتطبيق وتطوير الخطاب(٧).

ربما يُثار اعتراض أن علماء المستقبليات لا يمتلكون وحدهم كل هذه المفاهيم. وربما يكون هذا صحيحًا؛ ولكن عندما تُستخدم هذه المفاهيم خلال مدة مستدامة وتُمزج بموارد أخرى متاحة في علوم المستقبليات فإنها تتيح فهمًا مرتكزًا حول المستقبليات. ويُعد هذا هو الهدف والمغزى الأساسي لمعلمي ومدربي المستقبليات، وليس التمكن من التقنيات أو السعي نحو سيناريوهات مُحددة.

تُوفِّر مفاهيم المستقبليات للأفراد إذًا أسس خطاب المستقبليات ومنظوره التطبيقي؛ ولن يتطور الثاني بدون الأول. ولكن الشكل الثاني يقترح أن لأدوات المستقبل ومنهجياته دورها النقدي؛ فهي تُشكِّل الخطوة القادمة؛ لأنها تزيد القوة التحليلية لعمل المستقبليات من خلال استخدام النمذجة، والحسابات، واستغلال مجموعة بيانات كبيرة ومعقدة، ووضع تصورات (سيناريوهات) محتملة. ولكن كل هذه الأنشطة تتطلب تدريبًا وخبرةً وتمويلاً وسياقًا للدعم المهني؛ ولهذا فإن المعاهد البحثية والمؤسسات والجامعات ومستشاري المستقبل الناجحين يعدون جميعًا أمثلة لمؤسسات الاستبصار(٨).

وتُشكِّل هذه المؤسسات الخطوة التالية من التعقيد والقدرة الاجتماعية، وتُمكِّن مشروعات وعمليات المستقبليات من المضي قدمًا في مجالات؛ مثل تعليم المستقبليات والتخطيط الاستراتيجي ودراسات القرن الواحد والعشرين. حيثما توجد مؤسسات استبصار كافية تدعم فرقًا بحثية وتنتج أعمالاً على المستوى المطلوب، يُمكِن للمجتمع المضي قدمًا نحو الوصول إلى قدرات اجتماعية ومستقبلية واسعة. وبعبارة أُخرى، يُمكِن للاستبصار الاجتماعي المستقبلي بناء طبقة بعد طبقة من هذه العناصر.

(٧) David Hicks, *Educating for the Future*: *A Practical Classroom Guide* (Godalming, Surrey, UK: World Wide Fund for Nature; Bethesda, MD: World Future Society, 1994); Slaughter, *Futures Concepts and Powerful Idea.*

(٨) لنظرة عامة حول سبعة من هذه المؤسسات وتضميناتها، انظر: Richard A. Slaughter, "Why We Need Institutions of Foresight", chapter. 7 in *The Foresight Principle Cultural Recovery in the 21st Century*, Praeger Studies on the 21st Century. Adamantine Studies on the 21st Century 13 (Westport, CT: Praeger, 1995).

الجزء الثاني: مفاهيم المستقبليات

عناصر الأسباب العقلانية

نحتاج إلى أسباب عقلانية منطقية عند فعل أي شيء جديد؛ طريقة لتفسير ما ننوي القيام به، وتركيز الاهتمام حول بعض النتائج المتوقعة. يُمكِن الإشارة بإيجاز إلى بعض النقاط المفتاحية هنا:

١- للقرارات نتائج طويلة المدى

يتضمن منظور المستقبليات نظرة نشطة لاتخاذ القرارات. يستبطن كل قرار فرع محتمل يبتعد عن اتجاه معين ويقترب من آخر. بعض القرارات تافهة وتضيع وسط الأحداث الأكبر، بينما يُنظر إلى البعض الآخر على أنه يلائم الحاضر والمستقبل بقوة؛ فعلى سبيل المثال، يعتمد بقاء أو انقراض بعض السلالات الآن على القرارات البشرية فيما يخص العادات. بالمثل تؤثر قرارات استخدام بعض الكيماويات والتقنيات ونظم التسليح على استدامة البيئة وتوقعاتنا بمستقبل صالح للعيش.

٢- تتضمن بدائل المستقبل اختيارات في الحاضر

تُوفِّر قدرة العقل البشري على الامتداد بين مستويات متباينة في الماضي والحاضر والمستقبل وسائل قوية لتحديد الأهداف المنشودة. فالسلالة البشرية لم تُحبس بعد داخل عملية آلية تُملي مستقبلنا. وحيث إنه يُمكِن تخيُّل احتمالات مختلفة، فعادةً ما تتوفر حرية اختيار لا بأس بها. ويتضح أننا نحصل على خيارات جديدة في الحاضر لدرجة وعينا ببدائل مستقبلية جديدة. فعند وعينا بضرورة تجنب شيء ما، يمكننا القيام بالفعل الصحيح. وبالمثل، حين نتخيل ما نريد خلقه، يمكننا وضع وسائل تُمكننا من ذلك. وهذا ما ثبت صحته سواءً فيما يرتبط بالعلاقات أو سيارة جديدة أو مطار. تتضمن بدائل المستقبل اختيارات حاضرية؛

لأنها تستغرق وقتًا لدفع إرادتنا واستخدام الموارد الـمُحتاجة للحصول على النتائج المرجوة أو تجنب العواقب غير المرغوبة.

٣- تفضيل التفكير المستقبلي على إدارة الأزمات

أصبح التفكير المستقبلي ذا أهمية بنيوية للمجتمعات في فترات التحولات، وليس فقط أمرًا متعلقًا بالحذر الشخصي أو السلامة. يُفضَّل التفكير المستقبلي على إدارة الأزمات؛ لأن الأخيرة باهظة التكاليف وتهدر الوقت والموارد. وعلاوة على ذلك، أثبتت شيرنوبل وحوادث كُبرى أخرى أن المخاطر الناتجة ربما تكون أكثر كلفةً مما كان قد سمح به أي شخص إذا ما عرفوا مسبقًا تلك المترتبات. ربما لا نستطيع توقع حالة النظام الاجتماعي المستقبلي تفصيليًّا، لكنه يمكننا أخذ نظرة استراتيجية عامة لاستكشاف الخيارات والبدائل، واستباق الاحتمالات، والإعداد للطوارئ. يُفعَّل هذا بدرجة ما، ولكن بطريقة مُفكَّكة وغير مستقرة. فعلى سبيل المثال، في معظم المؤسسات لا توجد قدرة خارجية منظمة على المسح البيئي تسمح بتخطيط طوارئ طويل المدى. يخلق التفكير المستقبلي سياق اتخاذ قرار يسمح بتقليل المفاجآت غير السارة؛ مما يعني حدًّا أدنى من الأزمات (ولكن لا يُمكِن الجزم بإلغائها نهائيًّا). ونظرًا لارتفاع الحصص عالميًّا، تزداد أهمية الاستثمار في الموارد البشرية والمادية في جميع أشكال التفكير المستقبلي.

٤- حتمية التحولات المستقبلية

غالبًا ما ستكون التغيرات المتوقعة خلال المائة عام القادمة بمقام التغيرات التي حدثت خلال الألف سنة الماضية، وربما تتضمن فقدان معظم ما تبقى من الغابات الاستوائية، وتحولات مناخية عظيمة، وتفاعلات آلية - بشرية جديدة، وزيادة مطردة في متوسط العمر المتوقع، وشيوعًا شديدًا لأجهزة الحاسوب والتقنيات القوية الجديدة؛ مثل الهندسة الوراثية وتقنيات النانو. يؤدي التغيير المتعاقب والحثيث في كثير من المجالات قطعًا إلى تحديات عظمى لسلالتنا البشرية. هل سيمكننا التكيف مع هذه الأوضاع؟ هل علينا ذلك؟ كيف يُمكِن

تنظيم هذه التغيرات لصالح الجميع؟ تلعب دراسة المستقبليات دورًا هامًّا في تموضع هذه الأسئلة ومحاولة الإجابة عنها.

مجال المستقبليات

لا يخدم مفهوم مجال المستقبليات (بوصفه قائمًا على المعرفة بالطبع) تأطير المناظرات المهنية فقط، ولكنه مفيد أيضًا في توفير خرائط بسيطة للطلاب والباحثين وغيرهم. أجد سرديتين بعينهما أفيد من غيرهما؛ تُعرِّف الأولى ثلاثة أنشطة رئيسية متسلسلة ومتواصلة؛ وهي: أبحاث المستقبليات، ودراسات المستقبليات، وحركات المستقبليات. أما السردية الثانية فهي مصفوفة مفاهيمية.

أطياف عمل المستقبليات

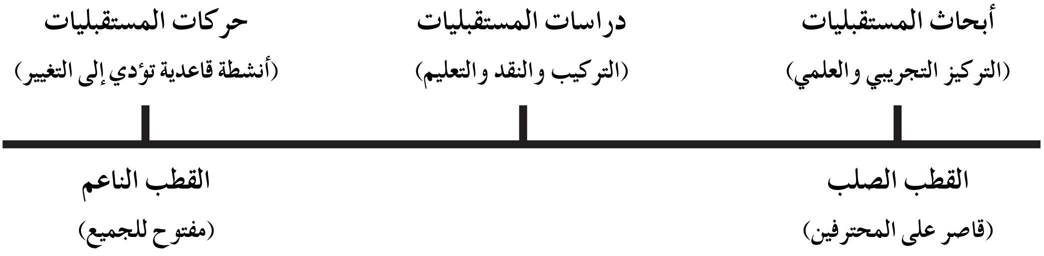

شكل (٣)

أبحاث المستقبليات

يتمحور التركيز هنا على التنبؤ والتخطيط واستكشاف المستقبليات باستخدام التحليل والمنهجيات الكمية. يميل المتخصصون نحو السيطرة على هذه المنطقة؛ حيث تتعقد المنهجيات المستخدَمة وتستهلك كثيرًا من الوقت والمال، وتمولها الإدارات الحكومات المختلفة والشركات ومؤسسات كبيرة أخرى. وعادةً ما ترجع إليهم نتائج الأبحاث، ويصل القليل منها إلى الجمهور العام، إلا إذا صدر كتاب أو مجموعة أبحاث لهذا الغرض بالتحديد.

دراسات المستقبليات

وضعت دراسات المستقبليات في منتصف طيف عمل المستقبليات؛ حيث يوجد المعلمون والنقاد والكُتَّاب والأكاديميون الذين عادةً ما يحاولون وزن عملهم المتخصص مع المقاربات غير الرسمية المذكورة أدناه. يهتم هذا المجال، إذًا، بفهم حقل المستقبليات وتطوير نظرة عامة على عمله وإيصالها إلى ومع مجموعات مختلفة وجمهور أوسع. تساهم دراسات المستقبليات مباشرةً في سياسات وتخطيط عدة مجالات أخرى.

حركات المستقبليات

كثير ممن يرتبط بمثل هذه الحركات لا يعتبرون أنفسهم مستقبليين أصلاً، ولكن تؤثر أنشطتهم بشدة على كلٍّ من حقل المستقبليات والمجتمع المبحوث. ارتبطت مجموعات داخل حركات المرأة، والسلام، والبيئة بعمل المستقبليات، بالإضافة إلى العديد من المنظمات غير الحكومية؛ لأنهم يميلون إلى دعم الأطراف المتماثلة. تعد الحركات والمجموعات الناجحة بينهم من أبرز شركاء التغيير الاجتماعي؛ حيث يضعون بنودًا جديدة على الأجندة الاجتماعية ويدعمون الابتكار الاجتماعي.

الطريقة الأخرى للتعامل مع المستقبليات هي اعتبارها مصفوفة تنظر إلى الأمام. كما يُبيِّن الشكل (٤)، يعتمد عمل المستقبليات على عددٍ من القدرات والإدراكات البشرية المحددة، ثم تُطبق المفاهيم والمنهجيات لدراسة عملَية الاستمرار والتغيير. غالبًا ما يُغض النظر عن أن المستقبليات تدين لدراسات العمليات بالبعد التجريبي الثمين. يعد هذا أحد جوانب المجال الذي يجعله أقل إبهامًا وسذاجة وتحزُّرًا مما كان مشارًا إليه. تفرض طبيعة المستقبليات ومدى عملها ضرورة معالجة كثير من المعلومات؛ ولذا يميل العديد من العاملين بالمجال إلى البحث الـمُوسَّع، عادةً باستخدام نتائج أعمال أكثر تفصيلاً قام بها متخصصون في مجالات أخرى.

تمتلك المستقبليات جذورًا متعددة، بالرغم من أن فروعها واضحة ومحددة. وتتضمن أبرز القضايا: التطوير، والبيئة، والسلام، والعلوم والتكنولوجيا؛ بينما تُركِّز موضوعات المستقبل على حقوق الأجيال القادمة، وطبيعة الحدود، والاستدامة، والقيم.

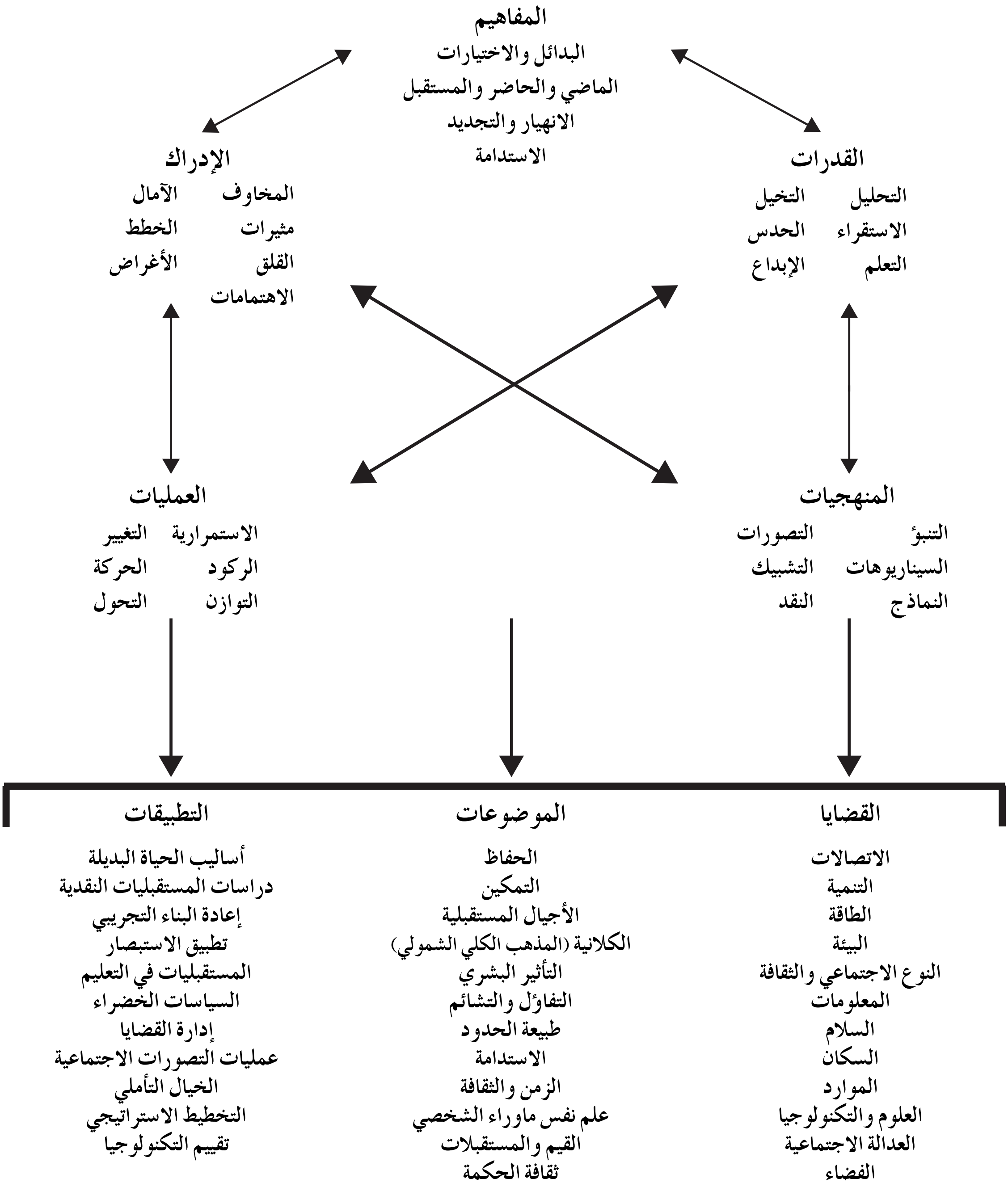
المفاهيم
البدائل والاختيارات
الماضي والحاضر والمستقبل
الانهيار والتجديد
الاستدامة
القدرات
التحليل
التخيل
الاستقراء
الحدس
التعلم
الإبداع
الإدراك
المخاوف
الآمال
مثيرات
الخطط
القلق
الأغراض
الاهتمامات
المنهجيات
التنبؤ
التصورات
السيناريوهات
التشبيك
النماذج
النقد
العمليات
الاستمرارية
التغيير
الركود
الحركة
التوازن
التحول
القضايا
الاتصالات
التنمية
الطاقة
البيئة
النوع الاجتماعي والثقافة
المعلومات
السلام
السكان
الموارد
العلوم والتكنولوجيا
العدالة الاجتماعية
الفضاء
الموضوعات
الحفاظ
التمكين
الأجيال المستقبلية
الكلانية (المذهب الكلي الشمولي)
التأثير البشري
التفاؤل والتشائم
طبيعة الحدود
الاستدامة
الزمن والثقافة
علم نفس ماوراء الشخصي
القيم والمستقبلات
ثقافة الحكمة
التطبيقات
أساليب الحياة البديلة
دراسات المستقبليات النقدية
إعادة البناء التجريبي
تطبيق الاستبصار
المستقبليات في التعليم
السياسات الخضراء
إدارة القضايا
عمليات التصورات الاجتماعية
الخيال التأملي
التخطيط الاستراتيجي
تقييم التكنولوجيا

شكل (٤)

دراسة المستقبليات كمصفوفة تنظر إلى الأمام

تُغطي التطبيقات التنبؤ، والمستقبليات والتعليم، والتخطيط الاستراتيجي، والتقييم التقني. ويعد التركيز على التصوير، والتشبيك، والنقد في نفس أهمية التنبؤ، والسيناريوهات المتوقعة، والنمذجة. تُعبِّر مفاهيم المستقبليات عن مدى واسع من القدرات البشرية؛ مثل الاستبصار والتصوُّر. لا تكفي المفاهيم والقدرات والإدراكات التقليدية – وحدها – للسماح بأسئلة المستقبليات، ما عدا المستوى السطحي جدًّا. تزيد المنهجيات القوة التحليلية والتطبيقية لعمل المستقبليات وتجعلها أكثر تنظيمًا. يساعد التفاعل بين المفاهيم والقدرات على تحفيز إدراكات جديدة عن المستقبليات تُشكِّل تطور عملها. وتُعد القضايا والموضوعات والتطبيقات داخل المجال بين أبرز القوى الـمُشكِّلة للثقافة الحديثة. يتفاعل المحركون الرئيسيون للتغيير الاجتماعي مع هذه المآخذ في نقطة أو أكثر، مما يعني أن دراسات المستقبليات تُوفِّر مساحة للتلاقي مع أبرز الأفكار والعمليات الـمُشكِّلة للعصر.

نظرة بنيوية لبداية القرن الحادي والعشرين

يتضح مما سبق أن المعرفة الخاصة بالمستقبليات إشكالية، ولكن هذا لا يعني أن المستقبل فضاء خاوٍ. على العكس، تعني الرؤية الواضحة لجوانب الماضي والحاضر، مع مدىً واسع من مفاهيم المستقبل ومنهجياته، أننا نستطيع فهم كثير من القوى التي سوف تُشكِّل السنوات العشرين القادمة، وقطعًا القرن القادم. لا نستطيع معرفة ما سيحدث بالمعنى التجريبي البحت، ولكننا يُمكِن أن نصل إلى تحليل بنيوي متكامل ومفيد يعتمد على التأويل المهاري. تتضمن الأسئلة المفتاحية التي يجب على العاملين في المستقبليات استكشافها:

ما الثوابت الأساسية؟

ما الميول الرئيسية؟

ما أهم التغيرات المرحلية؟

ما أكثر المشكلات حدة؟

ما العوامل الجديدة؟

ما أبرز مصادر الإلهام والأمل؟

اقترحت سابقًا أنه لا يُمكِن توقع الأحداث المستقبلية؛ لأن التوقع في النظم الاجتماعية يُعد من المستحيلات؛ لكن هناك طرق لقراءة الأفق العالمي تُمكِّننا من خلق رؤية متماسكة للأرض أمامنا. يعرف العاملون بحقل المستقبليات كثيرًا عن الاستمرارية في مجالات مختلفة؛ مثل اللغات والثقافة والتقاليد والبيئة؛ كما نعرف بالمثل كثيرًا عن تيارات التغيير ومراحله. وكما سبق ولاحظنا، يسمع باحثو المستقبليات بمزيد من الاهتمام لهؤلاء الذين يبحثون في تيارات المجالات الأخرى. يُمكِن استخدام هذه المعرفة لاحقًا لتحديث فهمنا عن التيارات الأوسع والتي ربما تكون كامنة حاليًا، ولكنها يُمكِن أن تهدد إقليمًا أو دولة أو نصف الكرة الأرضية أو البشرية بأسرها. بإمكاننا مراجعة طبيعة المشكلات العالمية الشاملة والنظامية، وتحديد العوامل والقوى الجديدة التي تظهر على السطح. ولكن مثلما أشار الشاعر الإنجليزي ويليام بليك بأن المنطق وحده يؤدي إلى اليأس، فمن الضروري تجاوز الطرق المنطقية البحتة وتحديد مصادر الإلهام والأمل. يُوفِّر الاستخدام الحذر لهذا الإطار رؤية متطورة للنظام العالم المُتغيِّر، وباستخدام كل الأدوات والقدرات المتاحة، يمكننا تحديد سياق المستقبل القريب بدون توقع كل خطوة في الرحلة.

تُعد خريطة المستقبل مجازًا يشرح هدف مجال المستقبليات عامةً، وتُقدِّم إلى متخذي القرارات رؤىً وصورًا وبدائل عن المستقبل؛ بهدف معرفة القرارات في الحاضر. الجدير بالذكر أن المغزى الأساسي لدراسات المستقبليات ليس التوقعات ولكن اكتساب نظرة عامة للسياق الإنساني الحالي؛ من أجل توضيح المستقبليات البديلة. تعود حلقة تحليل المستقبلات إذًا إلى الحاضر في صورة خيارات وأفعال وسياسات وما إلى ذلك. لا تكتمل الخريطة أبدًا، ولكنها تُحدَّث باستمرار بفعاليات ومعلومات وبيانات جديدة. وصف سياق مستقبلي بعينه إذًا ليس مشروع توقعٍ أو تنبؤٍ فقط، ولكنه عملية تأويلية تتكون من مراحل عدة؛

مثل المسح البيئي وكشف الإشارات والتفسير واتخاذ القرارات والتقييم والتنفيذ. وبالرغم من كل هذا، فلا يُعد المستقبل مملكة الـمُخططين والأكاديميين فقط؛ وإنما المستقبل ملك الجميع.

التوقع والتنبؤ والاستبصار

يبدو مصطلح المستقبل لكثير من الناس مرادفًا لتوقع. وبالمثل، يحمل مصطلح علم المستقبليات – الذي أضحى قديمًا – تضمينات تميل لتوقع أكثر. ما الفرق، إذًا، بين التوقع والتنبؤ والاستبصار؟

التوقع هو بيان واثق عن حالة المستقبل. بشكلٍ ما، يشيع التوقع في الحياة اليومية؛ ولكن تنحصر التوقعات المفيدة للنظم التي يُمكِن قياسها وفهمها (مثل الوقود اللازم لطائرة معروفة الحجم بحمولة معينة لمسافة محددة). يمكن التوقع بخصوص جميع الأشياء تقريبًا بشكلٍ غير رسمي، ولكن لا يُمكِن التعويل عليه عندما يتعلق الأمر بنظم اجتماعية مُركبة أو ظواهرٍ غير مادية.

يعتمد التنبؤ على فرضيات مشروطة ترتبط بالتحليل الحذر لخبرات الماضي. يُمكِن ترقب نتائج محددة بمستوى ثقة معين إذا تماسكت الشروط الأولية وصمدت التيارات الحالية. يعتمد هذا المنطق على فهم مُعمق للنظام أو النظم ذات الصلة. يُقدِّم الأداء السابق لنظام ما قاعدة منطقية للحكم على الحالة المستقبلية الممكنة. ويشيع استخدام منهجيات التنبؤً في الحكومة وقطاع الصناعة والأعمال.

يُعد الاستبصار، أولاً وأخيرًا، قدرة إنسانية، ويُستخدم بعدة طرق لحماية الكائن الحي من الأذى وإرشاده لحظة بلحظة، وساعة بعد ساعة ويومًا بعد يوم. يمارس عموم الناس التنبؤ عندما يحضرون معهم معطف المعطر أو شمسية (حتى حين تكون الشمس ساطعة)، أو يحددون موعدًا، أو يدخرون المال لشراء سيارة جديدة. فالتنبؤ أحد أهم المهارات التي تحمينا من ارتكاب أنواع الأخطاء، وتقينا من المعاناة المترتبة على ذلك.

الماضي والحاضر والمستقبل

تفصل اللغة الإنجليزية بوضوح بين الماضي والحاضر والمستقبل؛ فمثلاً يحمل الماضي مدلولات تتعلق بالتاريخ والخبرة والذاكرة والهوية والإنجاز الشخصي، ويشير الحاضر إلى هنا والآن واللحظة العابرة والوعي اللحظي، أما المستقبل فيتضمن الآمال والمخاوف والخطط والمشروعات والأهداف والنيات. تتضمن عمليتان مركزيتان تكوين الحاضر؛ هما تأويل الخبرات السابقة، والتطلع إلى المستقبلات الممكنة؛ وهما لا تتعارضان ولا يُمكِن اعتبار إحداهما أهم من الأخرى وتعززان بعضهما لدعم الوعي الطبيعي. ولكن محاولة البقاء في الماضي أو المستقبل المتخيلين لأية مدة تعني المخاطرة بالهرب والفشل في إعادة التواصل مع الماضي.

التفاعل بين الماضي والحاضر والمستقبل

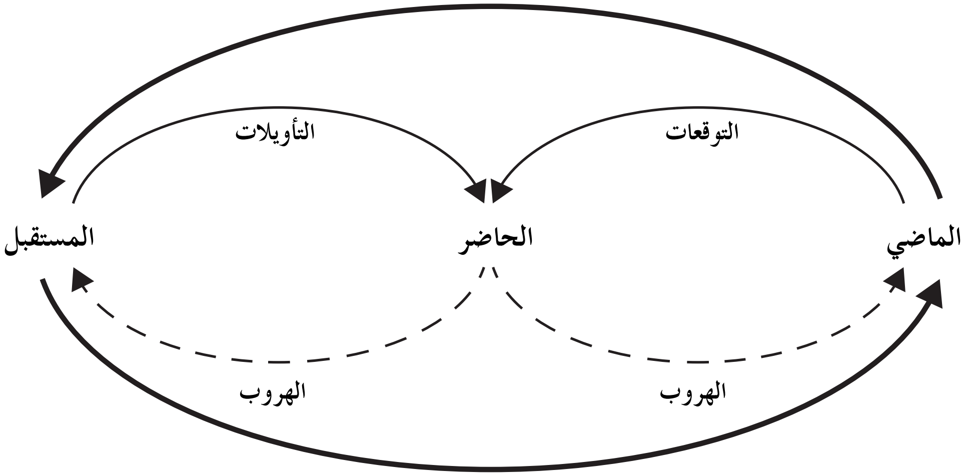

شكل (٥)

يجب التمييز بين الماضي والحاضر والمستقبل، لكن هذا لا يعتمد على أزمان وتصريفات الأفعال. في الحقيقة، تتواصل هذه المفاهيم الثلاثة للزمن؛ حيث يُؤثِّر تاريخنا وهويتنا وإنجازنا في الماضي على إدراكنا وفهمنا وتركيزنا في الحاضر، والذي يُؤثِّر بدوره على خططنا ومشروعاتنا وأهدافنا المستقبلية. ويزيد ثراء التواصل مع التدفق متعدد الاتجاهات بين هذه الخطط والمشروعات والأهداف المستقبلية. فعلى سبيل المثال، لا تُؤثِّر آمال المستقبل ومخاوفه على الماضي فحسب، ولكنها يمكن أن تدفع المرء إلى إعادة النظر في خبراته الماضية. وبالمثل، لا تنبع القرارات من الحاضر بالكلية؛ بل من المصفوفة التاريخية والثقافية التي نعيش فيها. فتصبح الحدود بين الماضي والحاضر والمستقبل، إذًا، مفتوحة وسائلة، مما يعني توافر اختيارات ثقافية وإبداعية بدلاً عن حاضر ضيق ومحدود. تتطلب الحياة اليومية حركة سهلة ومتدفقة بين الماضي والحاضر والمستقبل، ويفتقدها فقط الأشخاص الذين يعانون من ضرر في الدماغ أو مرض عقلي أو مشكلة في الذاكرة؛ حيث يحاصرون في حاضر متحرك ليس بوسعهم تذكره أو استبصاره.

امتداد الحاضر

ربما تكمن نقطة بداية موفقة في السؤال؛ كم يبلغ طول الحاضر: لحظة أم دقيقة أم ساعة أم يوم؟ تمتد بعض العمليات إلى آلاف الأعوام؛ فالبلوتونيوم على سبيل المثال مادة سامة من صنع الإنسان منتصف حياتها ٢٥٠,٠٠٠ عام، ومن هذا المنظور تُعتبَر ثقافتنا في المستقبل بالفعل! من ناحية، يوجد مفهوم ثابت للحاضر كلحظة عابرة، هنا والآن؛ وعلى الناحية الأخرى ربما يكون ربع مليون عام فترة مناسبة كذلك.

يتطلب استيعاب سياقنا للوقت ومدانا المُحدد للتاريخ مفهومًا للحاضر يُدرِك أننا أولاً متجذرون في الماضي، وثانيًا مسئولون عن خلق مستقبلنا القريب، وثالثًا نتحمل عبء حماية الأجيال القادمة. وبعبارة أخرى، بفضل ارتباطنا بكلٍّ من الماضي والمستقبل نحتاج احتياجًا ملموسًا إلى حاضرٍ ممتد. اقترح إليس بولدينج مفهوم حاضر المائتي عام؛ حاضر يمتد مائة

عام إلى الوراء ومائة أخرى إلى الأمام. لهذا المدى الزمني خاصية عضوية؛ لأننا نرتبط به من خلال العادات والمؤسسات والقيم، وليس أقل من أسرنا[٩].

الحاضر الممتد – سلسلة عائلية

يُوضح الشكل (٦) سلسة علاقات عائلية وروابط بين الأشخاص الذين عاشوا قبلنا وسيعيشون بعدنا. يُمكِن استشارة أشخاص من ماضينا مباشرةً من خلال ممتلكاتهم أو التجربة التاريخية لجيلهم، أما أشخاص المستقبل فيُمكِن أخذهم بعين الاعتبار عن طريق توقع الظروف المستقبلية وبناء صور ومشروعات مستقبلاتية خيالية وتوسيع حدود المجتمع الذي ننتمي إليه.

الحاضر الممتد – سلسلة عائلية

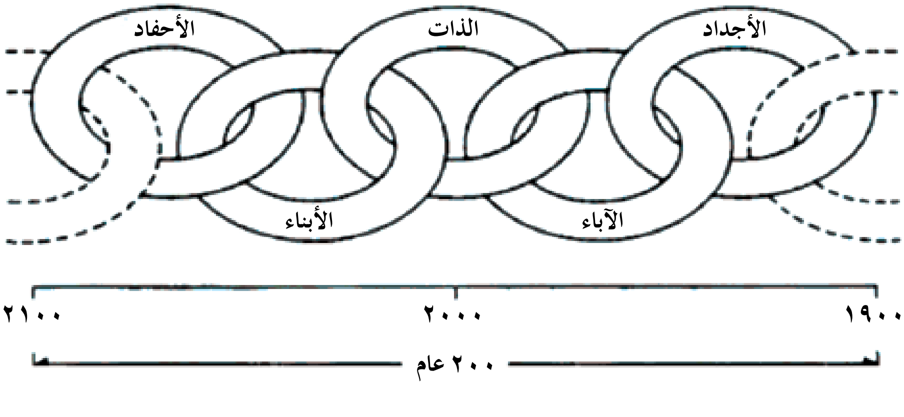

شكل (٦)

(٩) أشار إليس بولدينج إلى هذ المفهوم أولاً، انظر: Elise Boulding, “The Dynamics of Imaging Futures”, *World Future Society Bulletin* 12, no. 5 (1978): 1-8. واُستخدِم بكثافة من حينها.

يُمكِن لمفهوم الحاضر الممتد أن يُغير طريقة نظر الناس إلى العالم وطريقة اتخاذ القرارات إذا ما تم استخدامه بتوسع أو اعتماده كفرضية تشغيل معيارية. فعلى سبيل المثال، تظهر مشكلات عديدة طويلة المدى بسبب عدم أخذ المستقبل بعين الاعتبار. يهتم التفكير قصير النظر بالنتائج اللحظية للقرارات والأفعال فقط؛ مما يقلل أهمية التضمينات طويلة الأمد أو يتجاهلها كليًّا.

البدائل والاختيارات

يكمن السبب الرئيسي لدراسة المستقبليات في فهم البدائل والاختيارات الـمُقدَّمة؛ حيث تُعَدُّ مفاهيم أساسية في المجال. تشير البدائل إلى التصورات الممكنة أو خطوط التطور؛ أما الاختيارات فتلفت النظر إلى عملية الانتقاء من مجال مُحدد. عندما نستقر على مسار فعل بعينه، أو نكون مجبرين على ذلك، يكون الوقت قد فات لأخذ البدائل الأخرى بعين الاعتبار. تميل كثير من الاختيارات إلى أن تكون محددة بوقت معين؛ فيجب اتخاذها قبل الأحداث التي ربما تغلق ملفها تمامًا. فعلى سبيل المثال، لنْ يجدِيَ تنفيذ سياسات الحفاظ على الحياة البرية بعد انقراض معظم السلالات.

يمكن مقارنة الاختيار بين بدائل باستخدام خريطة طريق للاستقرار على المسار الذي يجب اتخاذه نحو مقصد ما. ربما يكون مثال القيادة هذا مفيدًا؛ لأنه يشير إلى أن الرؤية الأمامية أهم بكثير من الرِّؤية الخلفية. وعمومًا، كلما زاد الوقت والجهد المستثمران في تصور البدائل، كانت الاختيارات المتاحة أثرى. ويمكن استخدام السيناريوهات لهذا الهدف؛ فهي ليست توقعات على الإطلاق بل صور متضاربة توفر إطارًا للتفكير في بدائل متعددة في المستقبل. إليكم خمسة أمثلة:

سيناريو الانهيار

يستكشف هذا السيناريو مستقبلاً عطبًا فيه شيء هام. ربما تتضمن الأسباب والمثيرات: الملوحة المتسارعة، والتصحر، والحوادث النووية، والنزاعات، وتخريب البيئة (تدمير غابات بأكملها أو الإنتاج البحري الحيوي وما إلى ذلك)، وتزايد متواصل في النزاعات الاجتماعية والجريمة ومعدل انتشار الأمراض، واستنفاد الموارد الأساسية. نادرًا ما تضع الحكومات والمؤسسات الرسمية وشبه الرسمية هذا السيناريو في الاعتبار؛ نظرًا لطبيعته المُحبِطة، لكنه ممكن جدًّا تحققه ويُوفّر طرقًا للنظر إلى الضعف الكامن في مخاطر المستقبل.

مسارات متباينة لبدائل المستقبليات اجتماعية

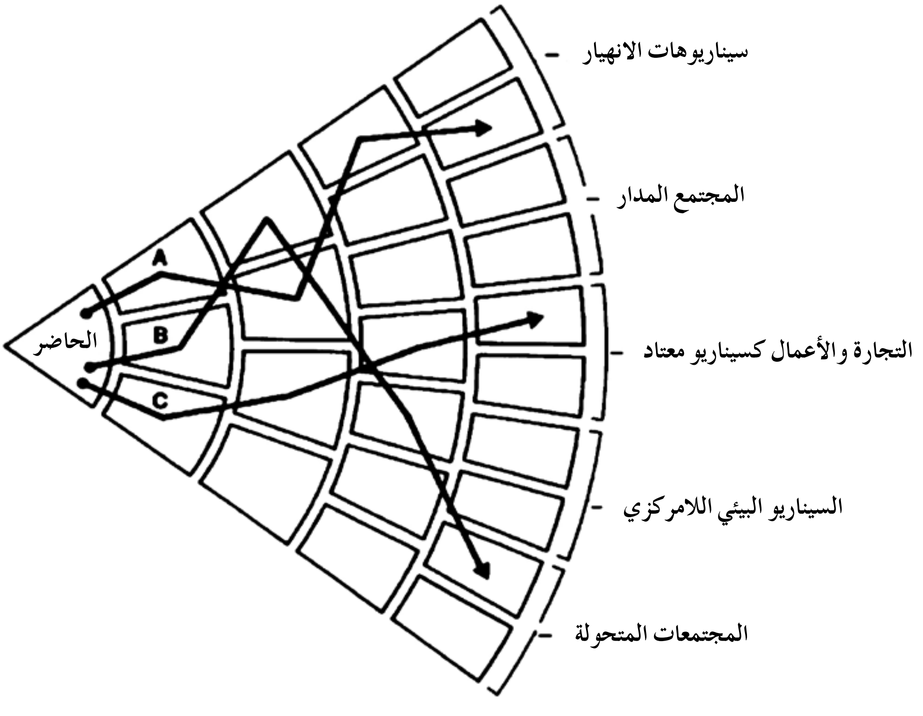

شكل (٧)

المجتمعات القمعية والسلطوية

هيمنت هذه المجتمعات على ماضينا الجمعي ولاتزال منتشرة في حاضرنا، ومن المحتمل أن تكون جزءًا من مستقبلنا أيضًا رغمًا عن انحسار اشتراكية الدولة. تتضمن العوامل اعتماد عقيدة وأيديولوجية عسكرية (الحرب هي السلام، إلخ)، وصعود حكومات يمينية، واستخدام نظم المعلومات للغزو أو القمع، واستخدام الندرة كأداة سيطرة، والكثافة السكانية. يبقى المستقبل الفاشي ممكنًا طالما بقيت القيم والمصالح وأدوات القمع والنظم الاجتماعية التي ساعدت في ظهوره. يجب وضع هذه السيناريوهات بعين الاعتبار، إذًا، وأخذ احتياطات تضمن عدم تحققها.

التجارة والأعمال كسيناريو معتاد

يُعد هذا السيناريو حالة مثيرة للاهتمام تُمثِّل التوقعات المتضمنة في معظم الأدبيات الرسمية للمستقبل (إذا اعتبرنا «أدبيات» و«تفكير» كلمتين صحيحتين في هذا السياق). يكمن ضعف هذا النوع من السيناريوهات في تجاهله لمشكلات؛ مثل اللامساواة المتراكمة بين الدول، ونمو إشكاليات الطاقة وعلم البيئة، وتزايد القيود على الموارد في عدة مناطق، وتطور صناعات الترفيه القائمة على تجنب الواقع، والانزلاق الحلزوني نحو أزمات متعذرة الحل. يفترض مستقبل التجارة والأعمال كسيناريو معتاد وجود مشكلات حقيقية ولا يمكن تجنبها؛ بحيث لا يستطيع هذا السيناريو حلها. وإذا كان هذا الحال بالفعل، تصبح المستقبلات من هذا النوع إما سيناريوهات للانهيار أو تقترب نحو أحد أنواع التحول. وعلى أي الأحوال، لا يعد هذا خيارًا مستدامًا، ويقف هذا التأويل في تضاد تام مع الافتراضات التقليدية التي تعتمد رؤية أكثر تفاؤلاً للحاضر.

السيناريو البيئي اللامركزي

يُعتبر البشر في هذا السيناريو تابعين للطبيعة أو جزء منها، وتتطور وتُطبق فيه مسارات طاقة لامركزية، وتُدرك الحدود الحقيقية للنمو وتُنفذ، وتُدشن إدارة للأخلاق ومعها التزام عميق بالإنشاءات البيئية. يُعد هذا السيناريو خيارًا بالطبع، لكنه يُمثِّل تغيرًا جوهريًّا في الاتجاه لحضارة اعتمدت عقيدة عنيفة للنمو الاقتصادي.

المجتمعات المتحولة

يصعب تشخيص المجتمعات المتحولة؛ لأنه يمكن تطويرها من خلال عدة مسارات. ويمكن ظهور هذا النوع من السيناريو نتيجة لمرحلة جديدة من التطور الإنساني، أو من خلال شكل تقني جديد. ربما تتضمن النتائج تسارع التطور البشري نحو مناطق جديدة، وتجاوز أو تحلل المشكلات التقليدية، وتطور تفاعلات آلية – بشرية معقدة، ومقاربات جديدة للصحة البدنية، ووضوحًا نفسيًّا أو حل نزاعات، وخضوع الاقتصاد تحت واجبات أخلاقية أعلى. وبالرغم من استبعاد هذه السيناريوهات لأول وهلة، فإنها ربما تحمل آمالاً عظيمة لتطور إنساني وثقافي حقيقي. سيكون من الخطأ الاعتقاد بسرعة تحقُّق أيٍّ من هذا، لكن لهذه المستقبلات قيمة حتمية؛ لأنها تُقدم تناقضًا واضحًا لرؤى المستقبل السائدة والتقنية ضمنيًّا.

لكلٍّ من هذه السيناريوهات الخمسة المتناقضة جذور في عالمنا الحاضر واليومي، وربما حتى تنبثق منها. وجميع السيناريوهات قابلة للتحقق، ولكن ليست كلها مرغوبة. وبشكلٍ جمعي، توفر بدايات إطار لاتخاذ القرارات وتصميم السياسات.

مواقف للمستقبلات

حين يُثار تساؤل المواقف، يظهر ميل نحو التفكير المرتبط بالقطبين المتناقضين: التفاؤل والتشاؤم. لهذا بعض القيمة، لكن كلاهما بسيط للغاية؛ ليُمكن تطبيقه على مشكلات مستقبلاتية غير نقدية. وتبقى حقيقة أن المصطلحين غامضان. ربما يعتقد شخص متفائل أنه لا يوجد داع للقلق، حين يكون هناك كل الداعي؛ وبالمثل، ربما ينزعج الشخص المتشائم؛ بسبب مشكِّلة ما مما يدفعه لمحاولة التعامل معها. الأمر الهام إذًا ليس المواقف المبدئية للأشخاص، ولكن ما يتبع ذلك. يكمن مفتاح التعامل مع قضايا واهتمامات ومخاوف المستقبلات في التعامل مع الاستجابة البشرية، ما أسميه «مبدأ التمكين». يمكن استخدام مصفوفة بسيطة لاستكشاف الاستجابات للمخاوف (شكل ٨) لها هدفان رئيسيان؛ هما: وضع الارتباطات السلبية في سياقٍ أوسع، وتركيز الاهتمام على ما يُطلق عليه استجابات بجودة عالية.

مصفوفة للتعامل مع المخاوف

يمكن استخدام هذه المقاربة بنجاح كبير في ورشة عمل كأداة استشارية أو من خلال أفراد يعملون بمفردهم. وأيًّا كانت الطريقة، سيكون من المفيد البدء باستكشاف مخاوف واهتمامات المشاركين مع الاعتراف أنه عادةً ما تعتمد هذه المخاوف على أرض صلبة في الواقع. وفي معظم الحالات، يكون هناك رد منطقي على العالم المساوَم بيئيًّا. الخطوة التالية هي اختبار المشاركين لصور وارتباطات ومشاعر وردود أفعال من خلال المجموعة بدون إصدار أحكام.

مصفوفة الاستجابة إلى المخاوف

	ردود قليلة الجودة	ردود عالية الجودة
تقبل الصور السلبية		
رفض الصور السلبية		

شكل (٨)

بُنيت هذه المصفوفة على قبول ورفض استجابات بجودة عالية أو قليلة مبنية على فكرة أن معظم هذه المخاوف مبالغ فيها. تعد المخاوف المرتبطة بصور للمستقبلات مشروطة وقابلة للتفاوض. وتُمثِّل هذه الأنواع من الاستجابات فرصة للتفاعل والاختيار والفعل ذي المغزى. وأخيرًا، تعد الاستجابة عالية الجودة مبدعة قبل أي شيء؛ فلديها القدرة لتجاوز المعطيات واختراق مساحات جديدة. على الناحية الأخرى، قد تكون الاستجابات قليلة الجودة رافضة ومتهكمة ومجردة من السلطة.

بتطبيق هذه المصفوفة يمكن تطوير أربع مجموعات من الاستجابات. اُشتقت الأولى من اعتماد رؤية بتجاوز مخاوفنا ثم استكشاف الاستجابات قليلة الجودة. تعتمد الثانية على التصديق على الخوف مع استكشاف استجابات عالية الجودة. ترفض المجموعة الثالثة مخاوف المستقبل مع استجابات قليلة الجودة. أما الرابعة فترفض المستقبلات باستجابات عالية الجودة. ربما يظهر بعض الغموض فيما يتعلق بالقبول والرفض، ولكن لا يجب على مجموعة العمل تضييع كثير من الوقت في هذه النقطة. ينتج هذا التمرين أربع مجموعات من الخطط يمكن مقارنتها فيما بعد. وعمومًا ستظهر الحلول التي يفضلها أغلب المشاركين، وستعتمد مآخذهم عن المستقبل على جودة رؤيتهم ومنظورهم وفهمهم. تتركز القوة، إذًا، في الأشخاص وليس رؤية متحررة من التأثير البشري. يظهر في هذه الحالة سؤال آخر: ما الموارد والتغييرات والالتزامات والدعم المطلوب لنقل هذه الخطط إلى حيز التنفيذ؟

الاستدامة

إذا كان هناك مفهوم واحد يتحدى الممارسات الاقتصادية الحالية، خاصةً مفهوم النمو الاقتصادي غير الـمُقيّد، فهو مفهوم الاستدامة. بعبارة بسيطة، الاستدامة هي استخدام الشيء بلا حساب بدون إحداث أضرار جسيمة في الموارد أو البيئة. تناول عدد خاص من مجلة *Futures* هذا المفهوم بالتفصيل[١٠]. يتضح معنى الاستدامة عندما يُطبق على الموارد المتجددة؛

(١٠) Mckenzie-Mohr and Marien, eds.,“Visions of Sustainability”.

مثل مصايد الأسماك والمحاصيل؛ حيث يمكن حصدهما باستمرار؛ لأنهما – إلى حدٍّ ما – يتجددان ذاتيًا، ولكن يُمكِن للاستخدام المفرط المتجاوز للحدود أن يلحق الضرر بالمورد نفسه. هكذا يكون الحال بوضوح حين يقع صيد مفرط وجائر في المحيطات أو استنزاف التربة بالاستغلال قصير المدى. على النقيض وبالتعريف، لا يُمكِن إدارة مورد غير متجدد؛ مثل البترول باستدامة؛ تقليل معدل الاستنزاف وتمديد المورد باستغلال المصادر الأقل درجة وإيجاد بدائل هو جل ما يمكن عمله.

تتحدى الاستدامة كلاً من الصرامة الاقتصادية وتفكير التجارة والأعمال المعتاد. في الواقع، فإنها تكشف أوهام من تناسوا أن الأرض محدودة (فيما يتعلق بقدرتها على توفير الموارد وامتصاص النفايات)، وتناقض رؤية أن الأرض – بنظامها البيئي الغني وحياتها النباتية والحيوانية المتعددة – متاحة للاستخدام فقط. على العكس، تعتبر هذه النظرة الاستغلالية جزءًا لا يتجزأ من نظرة الغرب الصناعي للعالم بافتراضات تتضمن فكرة أن الناس والطبيعة شيئان منفصلان، وأن للأشخاص حقًّا أصيلاً لاستغلال الطبيعة لأهدافهم، وأن مثل هذا الاستغلال لا يقيده أي حدود منظّمة. وعلى الرغم من أن هذه الافتراضات لم تعد صالحة، فإنها مازالت جزءًا من الحكمة التقليدية للثقافات الصناعية.

يختلف تصوُّر ثقافات أخرى للعلاقة بين البشر والمحيط الحيوي؛ فبعض الثقافات ترى البشر متحدين مع الطبيعة وتفترض أن لكليهما صفات مشتركة مما يستبعد الرؤى الاستنفادية والاستغلال طويل المدى من الحسبان تمامًا. فالسؤال عن استدامة النشاط يكشف بعض القضايا المستترة التي حُجبت في أوقات سابقة حين بدت الأرض حصينة وغير محدودة. ولكن علينا عدم الظن بوجود خطة معينة للاستدامة؛ فسيتضمن التقدم نحو هذا الهدف عملية تعلم الاجتماعي، وابتكارًا في كل مرحلة.

الإبداع والمستقبلات

عندما يبدأ الناس في التفكير في بعض المشكلات الرئيسية التي تواجه العالم، غالبًا ما يسألون ماذا عساي أن أفعل. التضمينات الاعتيادية هي أن قدرتهم على التأثير على أحداث مترامية الأطراف تبقى محدودة جدًّا. يُوفِّر حقل المستقبليات سياقًا يمكن فيه اختبار هذه الأسئلة. وإلى حدٍّ ما، يمكننا القول إن دراسات المستقبليات وجدت لتجيب عن تلك الأسئلة.

الفكرة هنا أن لكل فرد وسيلة تواصل مع كلٍّ من الثقافة الواسعة والموارد المحددة والمتوفرة في دراسات المستقبليات. يمكن الإجابة عن سؤال «ماذا عساي أن أفعل؟» إذًا عن طريق تناول المخاوف واستكشاف صور عالية الجودة للمستقبلات، وبناء معرفة وفهم وجه النظر العالمية، وتطوير ثقة شخصية، واستكشاف قضايا وسياقات باستخدام أدوات المستقبلات، ومقاربة المشكلات والقضايا بإبداع، وتحديد المشروعات والاقتراحات لتغيير بنَّاء. بهذه الطرق، يُمكِن للأفراد البدء بتطبيق الإبداع والابتكار على قضايا المستقبلات. وإذا استكشفنا فكرة الإبداع بتفاصيل أكثر، سنرى أن الاختيارات غير محدودة.

كيف يخلق الفنانون والكُتَّاب والمعماريون مشروعات جديدة؟ غالبًا لن نجد إجابة واحدة. الأشخاص المبدعون ليسوا بالضرورة أكثر إبداعًا بالفطرة من الآخرين، ولكنهم أفضل في استغلال طاقاتهم الإبداعية؛ بمعنى أنه عندما تطرأ لديهم فكرة سوف يلاحظونها ويسجلونها ويطبقونها، ومن هنا جاءت مقولة «الحظ يُفضِّل أصحاب العقول المستعدة». تظهر الفكرة الجديدة عادةً من اللاوعي أو تجربة شخصية، ربما تكون بذرة فكرة أو ملمحًا من لحن أو مجرد انطباع. لكن المرحلة التالية هي الأهم: الوقت المستغرق في العمل على الفكرة واختبارها ورسم البدائل. إذا أظهرت أيٌّ من هذه الصور المبكرة بعض الإمكانات يوجد إذًا فرصة لتطوير الفكرة. وأخيرًا، ربما بعد شهور عدة، يظهر العمل بشكله النهائي. ما العلاقة بين كل هذا وخلق المستقبلات؟

مبدئيًّا، تتشابه العملتان. أثناء عملية مسح البيئة العالمية يُصبِح المرء واعيًا بكثير من المشكلات والمخاطر، ولكن الحلول لا تكون واضحة عادةً. نحتاج إلى الوقت لنعرف عن موضوع بعينه – مثل تقنية جديدة أو خطر يهدد البيئة. وتظهر مشكلة أو قضية محددة من هذه الاهتمامات الواسعة؛ حيث يتمحور التركيز عليها. يتبع مرحلة الإعداد هذه مرحلة الإبداع. ربما تصبح الحلول سهلة وتظهر كلما تقدم المرء في العمل، وربما يفرض الإلهام نفسه. في كلتا الحالتين، المهم أن نركز على الحلول الممكنة؛ ففعل الاختيار والتركيز هام جدًّا؛ لأن ما نركز عليه ينمو! تطبيق الإبداع والابتكار على المستقبلات، إذًا، عملية تتكون من ثلاثة عناصر على الأقل: فهم السياق والمشكلات التي تظهر، ومعرفة كيفية الرد بإبداع، وتوفيق الردود لتلائم البدائل المرجوة.

يعني خلق وإيجاد المستقبلات بالأساس الفعل المبدع. يمكن تدريس الإبداع وتعلمه؛ فهو ليس بالشيء الغامض. وهو يعمل أفضل في سياق يكون فيه السلام الداخلي للمرء ومساره وحياته المهنية متوافقة مع احتياج خارجي واضح، ومعززة بمفاهيم ومهارات ومناهج متعلقة بالمستقبلات، ومدعومة بمنظمة أو شبكة فاعلة. عندما تجتمع كل هذه العناصر وتعمل معًا بكفاءة، يتوقف الناس عن الشعور بلا جدوى. ومع تكرار مستويات القدرات المُوضحة بالشكل (١) يشعرون بالقوة، بل وتتمتع بها. لكن، تجدر ملاحظة أن الإبداع والابتكار يواجهان مقاومة بالضرورة؛ لذا عندما يكون مشروع أو مقترح ما تحت جدوى التطوير، يجب على المبدعين توقع مواجهة معارضة.

ما وراء المشكلة أو جذور الإشكالية العالمية

بعض مفاهيم المستقبلات أكثر تطلبًا، لكنها تُعوِّض الجهد المبذول. أحد هذه المفاهيم ما يُطلق عليه مفهوم «ما وراء المشكلة» أو «المشكلة الماورائية» Metaproblemأو «الإشكالية العالمية» The Global Problematique. يُمكِّن إطار العمل المستقبلاتي النقدي من التوقف عن اعتبار مشكلات العالم منفصلة بدرجة ما عن منظومة القيم والمفاهيم البشرية

التي أوجدتها بالأساس. وبدلاً عن ذلك، يمكننا التركيز على مستويات المعاني الضمنية التي وقعت (وتقع) في الثقافات المختلفة المتأثرة بنظريات المعرفة والافتراضات الصناعية. ربما يُساء فهم هذه المستويات المختلفة إذا ما اعتبرناها مجرد اعتداء على نظام اجتماعي أو اقتصادي قائم. ولكن اختبار الوضع الحالي مرحلة ضرورية للتشخيص؛ فتحديد الخطأ يُكوِّن خطوة أولى ضرورية في عملية الابتكار الثقافي.

نهتم هنا بالفهم التأسيسي الذي شكَّل الرؤى الشائعة للعالم على المستوى الأوّلي وشديد القوى؛ الفهم الذي تم التعبير عنه (وتجسيده) في نظمنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتقنية. تتضح توابع ذلك بالفعل في ماضينا وحاضرنا؛ بينما تم استبدال توابع أخرى في المستقبل تُمثِّل التحديات التي أوجدناها نحن، لكن سيكون على الأجيال الجديدة التعامل معها. بدون بعض التقييم، سيكون من السهل قبول الافتراضات التقليدية التي تتضح كارثيتها لاحقًا.

سيادة العقلانية الأداتية

تعد العقلانية الأداتية نظامًا معرفيًا إدراكيًا قويًا يربط الوسائل بالغايات المفترضة أو الواضحة؛ ويسمح بإنشاء آلات ذات قوى عظيمة؛ مثل الحاسبات الآلية والصواريخ وماسح الجسد الضوئي. تعتمد البنية التحتية الجسدية لحضارتنا على هذا السحر التقني. ليس الهدف إذًا محو العقلانية الأداتية؛ لأننا لا نستطيع البقاء بدونها.

المشكلة أن العقلانية الأداتية تدعم رؤية معيبة للعالم؛ فهي لا تتضمن مفهومًا للحدود على سبيل المثال، وترى العالم حصريًا إما كآلة أو جبلاً من الموارد الخاملة. ولا تُوفِّر رؤى مفيدة عن الأخلاق والمعاني والأهداف؛ لأنها بالأصل نظام يتناول المستوى المادي للعالم. لذا يمكن لتطبيق العقلانية الأداتية أن يكون مبالغًا فيه إلا إذا حدِّدت بمبادئ عليا ما. يجادل الكثيرون أن هذا بالضبط ما حصل مع الحضارة الغربية. باختصار، العقلانية الأداتية طريق لكارثة.

الاختزالية وفقدان المتجاوز

الاختزالية هي الميل نحو توفير تفسيرات ظاهرية شاملة لظاهرة مُعقدة بمجرد وصف وتحليل أجزائها. يذهب المنطق الاختزالي المعياري إلى أنه في حالة عدم القدرة على قياس شيء ما فإنه إما غير هام أو غير موجود. وقع علم الاقتصاد في هذا الفخ؛ فالعمل المنزلي على سبيل المثال يُعتبر حرفيًّا غير ذي قيمة. وبالمثل، تعمل الأسواق العالمية كليًّا على أساس الخبرات السابقة؛ فهي آليات خام تستخدم إشارات مأخوذة من الماضي والحاضر للتحكم في عملياتها الحالية. لذا، تعمل على إخفاء المستقبل بفاعلية، وتختزل الزمانية والتأقيت إلى اهتمام ذاتي محدود في هُنا والآن. هذا هراء أخلاقي ووجودي.

تستوطن الاختزالية في الثقافات الصناعية. تُعتبر النظم البيئية إذًا مجرد مُقدِّمة للخدمات؛ والأشخاص مجرد مستهلكين وموارد بشرية؛ والأديان ذات صفة علاجية أو بلا جدوى. ويُغض النظر عن احتمال وجود واقعي روحي أو متجاوز ذي نظام مختلف. طبقًا للعقلانية الأداتية، الأخلاق والروحانيات والمستقبلات أقل واقعية من الأشباح.

العلوم والتكنولوجيا لغايات غير منطقية

قال لويس مومفورد ذات مرة عن نظم الأسلحة الحديثة أن الوسائل منطقية لكن الغايات مجنونة تمامًا. مثل كثيرين، رأى أنه حين تكون وسيلة تقنية ما قوية بمكان فإنها تصبح غاية بحد ذاتها. يُمكِن رؤية هذا في التقنيات الحديثة التي تطورت بسرعة كبيرة، ليس من حاجة بعينها أو هدفٍ واضح، ولكن من الحركية الإجبارية المرتبطة بالتنافس الرأسمالي.

يُطلق على الفترة الحالية «عصر المعلومات»، بالرغم من كل التشكك. فالمعلومات بحد ذاتها ليست بالضرورة قيمة ولا يجب استبدالها بالمعرفة أو الحكمة. تميل حركيات توسيع نظم المعلومات إلى غايات غير متوقعة بشكلٍ كبير. وخلال هذه العملية تختلط الوسائل والغايات وسط انتشار العوالم البديلة للإعلام الإلكتروني. يوجه نفس النقد للتقنية

متناهية الصغر (تقنية النانو أو النانو تكنولوجيا)؛ حيث تُستخدم مخاطر التنافس لتحفيز تطوير تقني. ولكن الغايات هنا إشكالية أيضًا. يُمكن للتقنية متناهية الصغر إذا نجحت التقليل من شأن السلامة الجسدية للعالم. النقطة المفتاحية هي أنه عندما تربط تقنيات قوية بروؤى غير مناسبة للعالم أو دوافع بشرية أولية تصبح تدميرية ولا علاج لهذا. تحتاج العلوم والتكنولوجيا إلى إعادة تأسيس على أساس مختلف وغير أداتي إذا أرادتا مساعدتنا على المضي قدمًا نحو مستقبلات إنسانية. إذا كان هناك مفر من الإشكالية العالمية لن يكون من خلال العلوم والتكنولوجيا بشكليهما الحالي قطعًا. ربما تأتي الحلول من إعادة تأسيس غايات إنسانية حقيقية تُعبِّر عن الدوافع والقدرات الإنسانية العليا.

تفكيك تقديس الطبيعة

هناك تعليمات قوية بحماية البيئة من سوء الاستغلال في معظم الثقافات التقليدية، تكتسب قوتها من نظم معتقدات تحترم البيئة وكل كائناتها. معظم هذه الكيانات الحية أو غير الحية مقدسة؛ بمعنى أنها تحتل مكانة وجودية أعلى من مجرد الاستخدام. ولا تُعامل بوصفها مجرد موارد: فيمكن عبادتها أو استشارتها أو استرضاؤها، وتصبح مصادر للثقافة الإنسانية وتظل في نفس الوقت مصدرًا للتجربة الـمُعاشة.

ورغمًا عن هذا، تطورت الثقافة الغربية طبقًا لوجهتي نظر مختلفتين تمامًا ظهرتا على يد كلٍّ من فرانسيس بيكون ورينيه ديكارت؛ حيث قدم بيكون المنهج العلمي (الذي يُمكن استغلال الطبيعة لمعرفة أسرارها)، بينما أكَّد ديكارت على ثنائية الناس والعالم. وصف نيوتن بعدهما العالم كآلة (حتى ولو لم يصدق هو نفسه ذلك كليةً)؛ وكانت النتيجة ثقافة رأت نفسها منفصلة عن الطبيعة لكن في نفس الوقت أفضل منها. في ذات السياق، يُمكن اتّباع التعاليم المسيحية بالخضوع للأرض، ولكن بثمنٍ غال. ثبت أن الثقافات التقليدية الأخرى التي تعاملت مع الطبيعة بوصفها مقدسة إلى حدٍّ ما، أو على الأقل ذات قيمة جوهرية، احتفظت بتواصل مع عالم رمزي ثري مع الحفاظ على رفاهيتها على المدى الطويل. وعلى

العكس، عني تفكيك تقديس الطبيعة بالنسبة للحضارة الغربية عدم الحفاظ على العالم وجميع المخلوقات أو تبجيلهم.

التحرير الثقافي

نشرت روث بندكت كتابها **أنماط الثقافة** عام ١٩٣٥ الذي جاء فيه أن البشر لا ينظرون إلى العالم بأعين جديدة، بل برؤية مُحررة ومتغيرة حسب مجموعات محددة من العادات والهيئات وطرق المعرفة(١١). تُعد هذه نقطة مفتاحية لوجود أسباب قوية تجعلنا نقتنع أن عملية التحرير الثقافي الذي تعرضت له رؤية الغرب الصناعي للعالم كانت له تبعات قوية. لقد أصبحنا نرى العالم بطرق محددة تُملي علينا كيفية استخدامه، لكن معظم هذه الطرق غير صالحة على المدى البعيد. فإذا أردنا تأسيس ثقافة مستدامة، يجب علينا إيجاد طرق لإعادة برمجة بعض عمليات التحرير الثقافي.

تقترح المشكلات العالمية الحالية أننا نحتاج إلى إعادة تأسيس رؤيتنا للعالم – تغير الطريقة التي نُفسِّر بها العالم. يعد هذا قطعًا تحديًا منقطع النظير؛ فنحن ببساطة لا نعرف كثيرًا عن كيفية حدوث هذه العمليات. ورغمًا عن هذا، يمكن تحديد الافتراضات الـمُكررة أو استبدالها، ومنها سيادة العقلانية الأداتية، وسوء تمثيل الطبيعة بوصفها مجرد موارد، والحاجة إلى حس متجدد بالحدود، وإعادة اكتشاف المقدس، والحاجة إلى التأكيد على التحكم البشري في الوسائل والغايات التقنية. وفي المقابل، يمكن الإشارة إلى مكونات أخرى يمكن أن تلعب دورًا في الرؤية الجديدة للعالم؛ منها على سبيل المثال حس بالعملية المؤقتة لاحتواء الماضي والحاضر والمستقبل، ورؤية عالمية منظمة، واستعادة الوعي المشارك، واستكمال تطوير الوعي الانعكاسي، والتزام بتطوير بشري على مستوى عالٍ(١٢).

(١١) Ruth Benedict, *Patterns of Culture* (London: Routledge and Kegan Paul, 1961): 2; Slaughter, *The Foresight Principle Cultural Recovery.*

(١٢) Lewis Mumford, *The Pentagon of Power* (London: Secker and Warburg, 1971): 172-173.

تجاهل التحرير الثقافي الذي طرأ داخل الثقافات الغربية المستويات الأعلى من العالم المختلف كيفيًّا، أو أساء تمثيله؛ فأظهره بمظهر غامض أو مستتر، وأقرب إلى المعلمين الروحيين والزاهدين والسحرة. وفي الحقيقة، هم جزء من هرمية الوجود مما سمح بظهور صفات طارئة على مستويات تنظيمية شديدة التعقيد. وكما تتفاعل أجزاء الساعة معًا لتزيد قدرتها على قياس الوقت وتتجاوز الحياة الغنية للكائنات تشغيل الخلايا الفردية، يستطيع التجلي الظاهر للوعي البشري أن يصل إلى مستويات عبر أو ما وراء شخصية. تقترح سرديات الوعي المتجاوز أن المستويات الأعلى من الوعي البشري تميل إلى أن تكون تضمينية وليست حصرية؛ حيث تصل إلى مدى أوسع زمنيًّا ومكانيًّا فتصبح ضرورية لمهمة علاج الكوكب وإيجاد السلام والمضي قدمًا نحو مراحل جديدة من الحياة الحضارية.

تحتل المعرفة المتجاوزة أعلى درجة من الوعي الإنساني؛ ليس لأنها الأفضل، ولكن لأنها مختلفة جدًّا ولا تتضمن رفضًا للتجريب أو العقلانية، بل فهمًا لما يلائمها. بإنكارها خطة التمايز الرأسي، قطعت الحضارة الغربية نفسها عن بعض أهم مصادر القيمة والمعنى؛ وكان أحد النتائج أن مشكلات مثل تلك التي خلفتها السلطة والملكية والمصالح المتضاربة تبدو غير قابلة للحل، ولكن يمكن للحلول المستدامة أن تظهر بسرعة في حركة عمودية نحو مستوى أعلى من الفهم يتجاوز ويحل التناقضات على المستويات الأقل.

ليس واضحًا إلى أي مدى يُمكن للثقافة أن تغير بوعي عملية التحرير الاجتماعي الخاصة بها. ولكن بالرجوع إلى أمثلة ناجحة للتغير الـمُنظم (مثل هذا الذي تحقق – إلى حدٍّ ما – على يد حركات البيئة وحقوق المرأة)، نجد أسبابًا كثيرة للتفاؤل. التغيير ممكن في الوقت المناسب وحين تكون الأفكار المتضمنة جاذبة للدعم والتضامن. لكن هذا لا يعني أن كل المشكلات قابلة للحل؛ فكثير منها لن يمكن حلها إلا بفهم شامل لجميع أبعادها. ولكن حتى هذه الحالة سيكون أمامها طريق طويل.

إعادة تفاوض المعاني

تعد فكرة أن الكلمات تعني ببساطة ما تقوله وأن النص يعكس بإخلاص تجربة متكاملة أو سردية عن العالم فكرة متماسكة ومريحة؛ لأنها تحافظ على الرؤية البسيطة للغة والمعنى بأنهما يمدانا برؤية للعالم مفهومة عالميًّا ومؤكدة بموضوعية. ولكن، مثل الحدود التي يقدسوها تعد راحة الواقعية وهمية؛ فهي تخفي الشخصية العقائدية (الأيديولوجية) واستخدامات اللغة تاركة الأفراد عرضة للحيرة والاستغلال. لا يوجد مدى كافٍ يسمح بازدهار قدرة التواصل والتعبير البشرية. ولكي نلاحظ (بغض النظر عن الهروب مِن) الفخ العقائدي واللغوي، يجب التنازل عن بعض درجات الراحة واليقين الفكرية؛ وبهذا، ما نفقده بالسذاجة وضيق الأفق يمكن اكتسابه بحرية التعبير عن الرأي.

ركَّز النقد الأدبي التقليدي على فهم نبرة الكاتب وتصنيف أسلوبه طبقًا لنظام معاييري مُحدد. ولكن يحتل الكاتب مكانة أقل في عالم اليوم؛ حيث يُقدِّم النص إطارًا مفتوحًا لإنشاء المعنى. ربما تكون هذه الرؤية مبالِغة بعض الشيء، ولكن القارئ لم يعد هذا الملاحِظ السلبي وأصبح مشاركًا نشطًا في عملية التواصل وقادرًا على اتخاذ قرارات بشأن المعنى والمغزى والنية من مصادر متعددة متضمنةً نصوصًا أخرى. عمليًّا، ربما تكون بعض النصوص قابلة لتأويلات محددة فقط، ولكن قطعًا يمكن للقارئ رفض الافتراضات النصية بل وتجاوزها. وهذه نقطة هامة للغاية، فالمعرفة لا تنضب وتكون المعاني دائمًا متدفقة وقابلة للتفاوض. تعد حصيلة هذه الرؤية ذات مغزىً كبير للأشخاص الذين يواجهون الحتمية الظاهرية للتطور التقني.

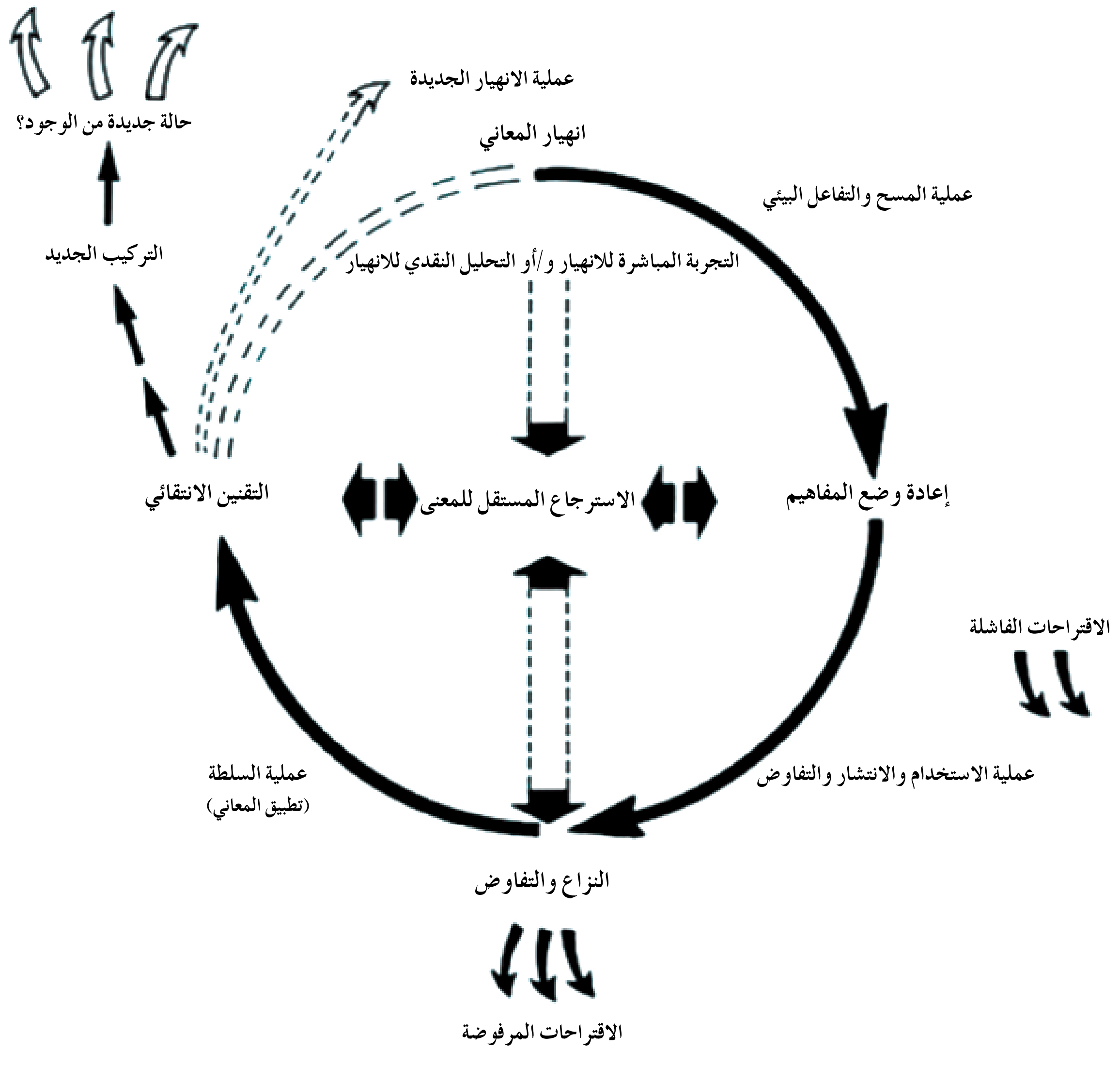
حالة جديدة من الوجود؟
عملية الانهيار الجديدة
انهيار المعاني
عملية المسح والتفاعل البيئي
التركيب الجديد
التجربة المباشرة للانهيار و/أو التحليل النقدي للانهيار
التقنين الانتقائي
الاسترجاع المستقل للمعنى
إعادة وضع المفاهيم
الاقتراحات الفاشلة
عملية السلطة
(تطبيق المعاني)
عملية الاستخدام والانتشار والتفاوض
النزاع والتفاوض
الاقتراحات المرفوضة

شكل (٩)

يمكن إرساء مبدأ هام في خضم احتلال مكانة متساوية بين الكاتب والقارئ، وهو المبدأ الذي ينطبق أيضًا على أشكال مختلفة من التواصل؛ مثل الإعلانات وافتتاحيات الصحف ونشرات الأخبار والخطب السياسية والمشروعات المستقبلية. يُمكِن استخدام مفهوم النص كمجاز وتطبيقه على الثقافة والتقاليد. على عكس الحكمة الواردة، تعد تحركاتنا الحالية المتجاوزة لأسلوب الحياة الصناعية غير معتمدة أساسًا على التغيير الاقتصادي والتقني. ويبدو لي أنه بفهم التحول الثقافي الحالي – ليس فيما يتعلق بالقواعد الخارجية أو التحكم في التقنيات، ولكن بوصفه عملية تحول تتضمن تفكيك وتجديد المعاني – نستطيع تبين أساس اهتماماتنا ومآخذنا عن البقاء والرفاهية على المدى الطويل.

من وجهة نظر المستقبليات النقدية، يعد هذا القلق مستمرًّا؛ حيث يرتبط بالعملية الإنسانية البحتة لتكوين المعاني والهدف والقيمة. إذا كان الأفراد أحرارًا في إعادة تأويل النصوص، فإنهم أحرار أيضًا في إعادة تأويل العادات المتوارثة والرؤى المعيارية للمستقبلات المنشودة. وإذا لا توجد قراءة نهائية أو سلطوية للتاريخ أو المستقبلات، يتبع ذلك أنه – ابتداءً – لكل فرد نفس الحق المتضمن في الوصول إلى مجالات اتخاذ القرارات المصيرية اليومية. ومن يختار هذا يمكنه الاشتراك في التجديد وإعادة الإنشاء الثقافية على المستوى الابتدائي، وبغض النظر عن الحالة الاجتماعية أو المؤهلات الأكاديمية.

مبدأ الاستبصار

يعد مبدأ الاستبصار أحد المفاتيح الرئيسية للمستقبل الصالح للعيش، ولكنه ليس مفهومًا كليًّا أو مُطبَّقًا بتوسع بعد. كما لاحظنا سابقًا، لا يمكن للناس معرفة المستقبل بدقة؛ لكنهم في نفس الوقت ينظرون قدمًا ليستعدوا لأي طارئ ويقيّموا النتائج المحتملة لأفعالهم. ينبثق التعقل والإحساس بالمسئولية من التفكير المستقبلي؛ فمن الحكمة توفير الإمدادات للتغيير الموسمي والدفاع عن النفس والتغير المناخي وأي طوارئ محتملة، ومن المسئولية الأخذ في الاعتبار التوابع الأشمل والأطول مدى لأفعالنا وقراراتنا.

يُطبِّق الجميع مبدأ الاستبصار في حياتهم اليومية عادةً بدون الوعي بذلك. يُعد الاستبصار جزءًا من إعداداتنا العقلية المعيارية، ففوائده ليست محل تساؤل. ولكنه يبقى نادرًا على المستوى الاجتماعي، لماذا؟ كما لاحظنا سابقًا، تحتضن الرؤية الغربية للعالم مجموعة من الافتراضات المسبقة التي تلائم رؤيتنا للعالم، وتخبرنا أن الماضي حقيقي وسلطوي، وأن الحاضر قصير المدى وهو كل ما يهم، وأن المستقبلات يمكن تجاهلها. تُعرقِل هذه الرؤية للعالم أي استثمار اجتماعي في الاستبصار حتى مع علمنا أنه ضروري على المستوى الفردي. يمكن اعتبار تجاهل المستقبل إذًا أحد القصور الإدراكية التي خلفتها الثورتان الصناعية والعلمية.

مؤسسات الاستبصار

يعني نقص الاستبصار الاجتماعي أن المجتمعات الصناعية المتأخرة تغوص في مرحلة حرجة وتُشكِّل تحديًا على نحوٍ أعمى وبدون أدوات الفهم والاستبصار والقدرة المؤسسية لاتخاذ قرارات فعالة واستراتيجيةٍ وطويلة المدى. نحتاج إلى الاستبصار الاجتماعي لتنفيذ مهام هامة وعاجلة؛ مثل المسح الضوئي والتحذير وتحديد الأولويات وتوعية صانعي القرار والجمهور وما إلى ذلك؛ وكلها مهام هامة بمكان؛ بحيث لا يمكن تركها للصدفة، ولكن يجب تنفيذها بنظام وبدعم ثقافي وسياسي واسع. يُمكِن تشبيه الاستبصار الاجتماعي بالأنوار الأمامية للسيارة أو كاشوف (رادار) الطائرة أو التقدير الموهوب لقبطان سفينة، ونحتاجه لتطوير رؤى مفيدة ومتقدمة للسياق العالمي في العقود المقبلة. ومن الضروري تقديم تفاصيل بنوية للخريطة المشوشة للمستقبل القريب، فبهذا فقط يمكننا الرؤية بوضوح وبشكل كافٍ للابتعاد عن الكارثة والاتجاه نحو أسلوب حياة أفضل. يُمدد هذا النمو في الفهم الإنساني وتوسيع مداركنا لتتجاوز الحاضر المجتمع الإنساني ليتجاوز هنا والآن، ويشمل ذواتنا المستقبلية وذريتنا وكذلك أنواع المخلوقات الأخرى. حديثًا، أصبح الاستبصار ضرورة وليس اختيارًا بقوة الحتمية التاريخية. سيؤدي استمرار نموذج الأعمال المعتاد كسلوك وممارسات حتمًا إلى مستقبل لا يريد عاقل أن يعيشه.

شهدت السنوات السابقة محاولات ملموسة لتنفيذ أنشطة استبصار مختلفة في شكل جهود حكومية أو مبادرة من القطاع الخاص كمؤسسات متخصصة أو شبكات تطوعية أو جمعيات أو مجالس؛ ومنها على سبيل المثال لجنة الكونجرس حول المستقبل Congressional Clearing House on the Future بواشنطن العاصمة، والشبكة العالمية للمسئوليات نحو الأجيال القادمة Global Network on Responsibilities to Future Generations بجامعة مالطا، ومؤسسة تحالف الأجيال القادمة Future Generations Alliance Foundation بكيوتو في اليابان، ومعهد الاختراعات الاجتماعية Institute for Social Inventions بلندن، والمكتبة الدولية للمستقبلات International Futures Library بسالزبورج بالنمسا، واللجنة الأسترالية للمستقبل Australian Commission for the Future بملبورن. وبشكلٍ عام، تسعى هذه المؤسسات نحو:

- إثارة القضايا ذات الاهتمام المشترك التي يُمكِن غض النظر عنها في الرؤية التقليدية قصيرة المدى؛ مثل السلام والاستقرار البيئي والأخلاق الجيلية والتضمينات الاجتماعية للتقنيات الجديدة.

- إلقاء الضوء على المخاطر والبدائل والاختيارات التي تحتاج إلى مراجعة قبل أن تصبح عاجلة.

- نشر الصورة الناشئة عن مستقبل المدى المتوسط لدمج الجمهور العام في عملية صناعة القرار.

- الإسهام في المعرفة المتعلقة بالاستبصار وعملية التغيير والاستمرار التي تؤطر المستقبل.

- تحديد التضمينات الحركية والسياسية للتحول نحو عالم مستدام ووضعها على البرنامج السياسي العالمي.

- تسهيل تطوير الابتكار الاجتماعي.

- تمكين الأشخاص ومساعدتهم على المشاركة في صنع المستقبل.

- مساعدة المؤسسات على التطور مقابل الإطار العالمي المتغير.
- توفير البيئة المؤسسية الملائمة لأعمال مبتكرة متعلقة بالمستقبلات.

يُمكِن لهذه المساهمات الهامة أن تساعد في دفع التحولات في الإدراك والسياسة والممارَسات والتي تُشكِّل نقطة الارتكاز التي تتمحور حولها الثقافات العالمية الكبرى. على الرغم من هذا، فمن الضروري العمل على تطوير مؤسسات الاستبصار وجودة عملها باستمرار.

لا يمكن تحديد الاستبصار باهتمامات محددة؛ فهو يظهر في أماكن مختلفة في نفس الوقت ويُمثِّل هذا تطورًا في الإدراك البشري. ولكن، مع بعض الاستثناءات، تبقى أعمال الاستبصار مهمشة. إذا اعتبرناه رائد الابتكار الاجتماعي سيكون هذا ما نتوقعه رغم كل شيء. وبالوضع في الاعتبار طبيعة الحواجز، سيأخذ التحول القوي نحو التنفيذ الملموس للاستبصار بعض الوقت بالضرورة. اقترح بعض الخطوط الإرشادية العامة لتوسيع نشاط الاستبصار كما يلي:

- من الضروري بناء دوائر دعم فعالة، ويتضمن هذا الاهتمام بالتواصل والنشر من خلال الإعلام والمنتديات العامة والعلاقات العامة القوية.

- يجب أن تُشِّكل مراقبة الجودة جزءًا هامًّا من أسلوب العمل لأية مؤسسة، ويجب تطبيقها على الموظفين والإصدارات والفعاليات العامة وأعمال الاستبصار. ومن الهام أيضًا تجذر أية مبادرة استبصار في أساليب التساؤل والفعل والتواصل القوية بمكان لأية مهمة مطلوبة. يعني هذا جزئيًّا تنفيذ منظور متعلق بالمستقبلات ومتعدد المجالات يصل إلى مدى واسع من الطرق والمقاربات، والأهم يعتمد على أساس أخلاقي صلب.

- التواصل بين العاملين بمجال الاستبصار ضروري للغاية لتبادل المصادر والرؤى وتسهيل التشبيك وتجنب التكرار. هناك حاجة ماسة للبحث في سياقات الاستبصار؛ حيث تُمثِّل ابتكارًا ثقافيًّا لا يمكن التقليل من شأنه. وبما أن اهتمامات مؤسسات المستقبل تتوجه نحو رفاهية الجمهور، يجب اعتبار عملها خدمة عامة وتمويلها على هذا النحو.

الأطر الزمنية والنماذج الثلاثة للعالم

شكل (١٠)

المصدر: **تجاوز الحدود.** لندن: ١٩٩٢، ص٢٣٥.

الأطر الزمنية

تتأرجح الأطر الزمنية لمعظم الأغراض البشرية بين ثوانٍ وسنين. وكما لاحظنا سابقًا، لكل نشاط إنساني إطار زمني مناسب (انظر الشكل ١٠). يتأرجح هذا بين سنة واحدة وخمس سنوات لمعظم الأغراض التخطيطية. وتعد الانتخابات المقبلة الإطار الزمني الأوحد في السياسة. ولكن للأنشطة البشرية تبعات يصل مداها إلى آلاف السنين؛ مثل انقراض بعض الأنواع، وخلق واستخدام وتخزين المواد الانشطارية؛ مثل البلوتونيوم. يقترح هذا أنه يُمكِن للأطر الزمنية التخطيطية السائدة قصيرة المدى ألا تلائم ظواهر طويلة المدى.

أطر زمنية مختلفة لأغراض مختلفة

هل يمكن ملاءمة أطر زمنية محددة مع أنشطة معينة؟ لأغراض السياسات الاجتماعية والاقتصاد والتعليم على سبيل المثال، هناك حاجة لوضع إطار زمني أوسع. يُمكِن أن يُقدِّم حاضر المائة – مائتي عام إطارًا زمنيًا أنسب من خطط السنة الواحدة إلى خمس سنوات التي يعتمد عليها معظم التخطيط السياسي والاقتصادي الغربي الحديث. المغزى الضمني أنه عمومًا يجب ربط بعض الأنشطة بأطر زمنية أطول، يُعتبر الاستخدام الواعي للأطر الزمنية هو التحول الأهم. ويعد التفاعل بين العملية المؤقتة والثقافة البشرية مجالاً بحثيًا مثيرًا للاهتمام بتضميناته الهامة لتنظيم الشئون البشرية.

حدود النمو

قبل عدة سنوات من صدور كتاب **حدود النمو** (١٩٧٢)؛ كتب لويس مومفورد عن الطريقة التي أصبحت فيها إزالة الحدود أولوية مركزية للمجمعات الصناعية: «هناك سرعة واحدة كفء: السرعة القصوى، ومقصد واحد جذاب: أبعد، ومقاس واحد مرغوب: أكبر، وهدف كيفي منشود: أكثر. تعد توابع هذه الأولويات مهمة بمكان؛ بحيث أصبح الهدف

المسيطر على المجتمع الغربي هو إزالة الحدود وإسراع رتم التغيير وتذليل الإيقاعات الموسمية وتقليل المتضادات الإقليمية [...] لنشر الجِدة الآلية وتدمير الاستمرارية العضوية»(١٣). يتلامس نقد مومفورد مع قلب الإشكالية العالمية. كان الاعتقاد بوجوب احتلال الطبيعة افتراضًا لا جدال فيه طبقًا للرؤية الغربية للعالم، ولكن للافتراضات المنبثقة عنه تضمينات كارثية. إليكم مثالاً للحاجة إلى تحليل يستكشف ما تحت السطح؛ حيث إن فقدان مثل هذا العمق – ربما أكثر من أي عامل آخر – هو ما يعرقل محاولات المستقبليين للوصول إلى حلول للمشكلات العالمية.

اعتمد **حدود النمو** على الرؤية المالتوسية [التي وضعها الاقتصادي توماس مالتوس (المترجمة)] والتي تتنبأ بأن النمو المستمر سيؤدي إلى المجاعات واندثار الموارد الطبيعية وتدهور البيئة، ولكنها ذهبت أيضًا إلى أن الإنسان لا زال يستطيع اختيار حدوده والتوقف عندما يريد إضعاف بعض الضغوط القوية التي تؤدي إلى زيادة السكان ونمو رأس المال، أو تدشين ضغوط مضادة. إذا لم نعتمد أيًّا من الخيارين سينهار أي جزء من النظام العالمي وسيتوقف النمو بضغوط ليست من اختيار الإنسان(١٤). يؤدي هذا الجدل إلى عدم الراحة، ولكنه لن يغير ثقافة بأكملها؛ لأنه يسبب نتائج قليلة التأثير على افتراضات رؤية العالم.

وقع **مستقبلنا المشترك**، الذي يُعرف أيضًا باسم **تقرير بروتلاند** (١٩٨٧)(١٥)، في خطأ مشابه؛ حيث حاول توضيح كيف يُمكِن الوصول إلى نمو اقتصادي آمن وتوزيعه بشكلٍ متساوٍ، لكنه فشل في تقديم أي حلول لافتقاده إلى نقد حقيقي للافتراضات المؤثرة على المجتمع الغربي. على النقيض، يستكشف **تجاوز الحدود** (١٩٩٢) النمو الاقتصادي المتسارع في عالم محدود، ويناقش حركيات التحول نحو الاستدامة، ويُقدِّم أيضًا منطقًا موجزًا لمأسسة التفكير المستقبلاتي فيما يلي: «باعتبارات الوقت الذي تحتاجه الغابات لتنمو، والسكان ليصابوا بالعجَز، والملوثات لتعمل عملها في النظام البيئي، والمياه الـمُلوَّثة

(١٣) Donella H. Meadows et al., *The Limits to Growth* (New York: Universe Books, 1972).

(١٤) المرجع السابق.

(١٥) World Commission on Environment and Development, *Our Common Future* (Oxford: Oxford University Press, 1987).

لتصفى، والنباتات الرئيسية لتندثر، والناس ليتعلموا ويتدربوا، لا يُمكِن للنظام البيئي التغير بين ليلة وضحاها حتى وإن وصلته رسائل واضحة ومحددة وفي وقتها بضرورة ذلك. لدواعي الدفع الصحيح، يحتاج النظام الذي يمتلك قوة دفع حركية كامنة إلى النظر عقودًا إلى المستقبل»[١٦].

يحتاج النمو الاقتصادي إلى صياغة مفاهيمه؛ هل يشير فقط إلى التراكم المادي، أم هل هناك أبعاد مهمة للنمو غير المادي تجاهلتها الثقافة الغربية؟

أشخاص المستقبل

إذا كان هناك موضوع متكرر في أدبيات المستقبليات فهو الصراع بين النوايا البشرية والقوى التقنية غير الشخصية. الانطباع السائد الذي يظهر من الثقافة الشعبية هو أن المستقبل يُشيّد بوسائل علمية وتقنية. فمن السهل إيجاد صور ووصف لسيارات ومركبات فضاء ومدن وحاسبات المستقبل وما إلى ذلك؛ ولكن عند تصوير الأشخاص يكون عبر وسائط خارجية ويميلون نحو الميكنة أو يظهرون في ملابس مستقبلية. ومن المستحيل تقريبًا إيجاد صور أو مفاهيم ذات مصداقية لأشخاص المستقبل كأشخاص. لماذا تسود التقنية إذًا؟ تتواطأ النظرة الصناعية المتأخرة في عملية تُظهِر الحتمية التاريخية كأنها تبتعد عن الأشخاص وتستثمر في منتجات القدرة والذكاء البشري. ومن هنا نبتعد خطوة صغيرة عن رؤية الأشخاص كخادمين (أو ضحايا) لا حول لهم ولا قوة لنظام اجتماعي تقني لا متناهي القوى. تتميز المستقبلات التي تظهر حينها بطبيعتها السوداوية المريرة (ديستوبيا)؛ فالمستقبل الذي تهيمن عليه التكنولوجيا ليس مستقبلاً للبشر. هناك حاجة ماسة إلى تموضع حركية مضادة للابتكار والتطور التقني الإلزامي، وهو ما تُوفره الرؤية المتجاوزة للأشخاص.

يُعد الاعتقاد في الفصل بين الأفراد أسطورة غربية بامتياز؛ حيث تنتهي الهوية الشخصية عند سطح الجلد. تهتم وجهة نظر أعمق بالتفاعل بين الأفراد والبيئة بمعناها الواسع؛ مثل تدفق

(١٦) Donella H. Meadows, Jorgen Randers and Dennis L. Meadows, *Beyond the Limits: Global Collapse or a Sustainable Future* (London: Earthscan, 1992).

الطعام والطاقة والهواء والعلاقات متعددة المستويات. يبيِّن الاختبار الدقيق لهذه العلاقات انغماسنا في شبكة متعددة من الوجود. تخبرنا سجلات الملاحم والروحانيات من ثقافات مختلفة أن هذه الوحدة الضمنية لا يجب اختزالها؛ حيث يمكننا اختبارها مباشرةً. ليس من السهل الوصول إلى مسار الوعي المتجاوز؛ ولكن إدراك أن هناك مسارًا ووسائل للتحرر من المستقبلات التقنية تعطي القضية أبعادًا أخرى.

تجتذب دراسة ظاهرة الماوراء شخصية اهتمامًا كبيرًا؛ لأنها تُفجر خيارات بشرية للتطور والتغيير ربما كان لا يمكن تخيلها من حدود الرؤية التقنية للعالم، وتُوفر أساسًا لإعادة تفاوض الرؤى التوافقية عن الماضي وللقفزة التخيلية نحو مستقبلات مختلفة تمامًا. يعتبر كين ويلبير من أبرز أنصار هذا التيار؛ حيث يتتبع الظهور التاريخي للأنا من أرضية اللاوعي الطبيعي حتى المرحلة العقلية الحالية. وفي كل مستوى، يُفرِّق بين الاهتمامات النموذجية كما أرّختها السجلات الثقافية. تعد هذه الخطة أنيقة وموحية؛ لأنه بتجاوزها الأنا العقلية ترسم إطار العمل للتطور والطموح البشري (في مقابل التقني). من المهم ملاحظة أن هذا لا يُطبَّق في الألفية الجديدة. يُحذِّر ويلبير من حماس العهد الجديد، ويشير إلى أن الأمر استغرق ١٥ بيليون سنة عجاف لنصل إلى المرحلة الحالية من التطور البشري والثقافي، فمن غير المرجح ظهور حضارة جديدة غدًا أو العام القادم(١٧). يمكن طبعًا الوصول إلى مستويات من الوعي متجاوزة الأنا العقلية، لكنها لن تظهر بشكلٍ موسع لعقود أو حتى قرون. ولكن إذا فهمنا هذه المستويات من الوعي بصفتها مساهمة في رؤية بشرية متحولة، ستكون ذات اهتمام وقيمة لحظية.

يُقدم تشخيص ويلبير لسلسلة الوجود العظمى إطار عملٍ عام ذا استخدام عملي مُوسَّع. يُؤدي التفكير في المستقبل فيما يتعلق بالوعي الضمني والبصيرة والهوية إلى تغيير جذري في مفاهيم الجدل المستقبلاتي. توصف مرحلة الحدس النفسي بأنها بداية الانفتاح والوضوح المتجاوز، صحوة الوعي الذي هو أكبر من مجرد العقل والجسد(١٨).

(١٧) Ken Wilber, *Up From Eden: A Transpersonal View of Human Evolution* (New York: RKP, 1983): 7-11.

(١٨) المرجع السابق: ٣٢٤.

تشير مفاهيم الانفتاح والوضوح والوعي إلى صفات إنسانية قلما ظهرت في مناقشات مستقبلية. ويعد البدء في وضعهم في مركز رؤيتنا المستقبلية تحولاً للتركيز بعيدًا عن عالم تقني ونحو إنشاء عالم إنساني بالأساس، مما يضع وسائل تحويل سيادة الآلة والتقنيات داخل القبضة الخيالية، وترجع الخيارات للأفراد والمجموعات التي تاهت في كابوس الماكينات الكبرى.

خطة للقرن الواحد والعشرين

نحتاج إلى خطة للقرن الواحد والعشرين الآن؛ لأن التغيير المقصود يحتاج إلى وقت، وتنظيم، وإيجاد الموارد المطلوبة واستغلالها، وخلق بنية تحتية إدارية وتنظيمية؛ كما تحتاج المشروعات الصغيرة إلى وقت لتنمو وتتطور. لكن بمعطيات طبيعة الأزمة التي تواجه البشرية والكوكب وتعقيداتها، يمكن للأشخاص الانسياق. لذا من المهم تحديد بعض الأولويات:

إصلاح التلف

بمعطيات الدمار الذي سببه النظام الصناعي على الكوكب، أصبح إصلاحه ضرورة مُلحَّة. تضررت العديد من النظم البيئية بينما تمت مساواية البعض الكثير منها، وفقدنا أنواعًا بأكملها من النباتات والحيوانات. يجب استبدال حركيات الدمار بحركات إرجاع وتجديد؛ فهناك مدى واسع من المهن الجديدة يمكن تطويرها من التقاء العلوم البيئية والنشاط البيئي. أتوقع أن أرى خلال القرن القادم مجتمعات جديدة في مناطق منكوبة حول العالم مُكرسة للتجديد البيئي.

خلق اقتصادات مستدامة

سيكون خلق اقتصادات مستدامة صعبًا، لكن لا مفر منه؛ لأن الاقتصادات غير المستدامة – بالتعريف– لا يمكنها الاستمرار. سنحتاج إلى إعادة تعريف النمو، وإعادة تقييم المصادر، وإعادة النظر في التبعات البيئية في كل الحسابات الاقتصادية بدلاً عن تجاهلها كعامل خارجي، وإيجاد مجموعة كاملة من المؤشرات الكيفية الجديدة. وعلى مستوى أعمق، سنحتاج إلى استبدال عقائد ونظم القوى التي تقود الآلة التقنية والفنية، كما سنحتاج بالمثل إلى إعادة تقييم الأطر الزمنية الـمُطبقة على الحياة الاقتصادية البشرية، والأهم سنحتاج إلى الهرب من التفكير قصير المدى المنتشر في الأعمال والصناعة والتعليم والقطاعات الحكومية(١٩).

إطلاق الطاقة البشرية الكامنة

يرى البعض إطلاق الطاقة البشرية الكامنة كمفتاح للتجديد الثقافي. فكل شخص بداخله قدرات وطاقات هائلة قلما يستخدمها في حياته اليومية. ومن يستطع إدراك قدراته وتطويرها يصبح فاعلاً في التغيير. وكثير من المستقبليين دليل حي على هذه الفكرة؛ أبرزهم الراحل روبروت جونك(٢٠). يُوضِّح تاريخ المخترعين والمبتكرين والنشطاء الاجتماعيين وحركات المواطنة أنه يُمكِن للأفراد خلق قوى تغيير جبارة عند تواصلهم مع مؤسسات أهلية وأفكار منتجة.

(١٩) Paul Hawken, *The Ecology of Commerce* (London: Weidenfeld and Nicholson, 1993).

(٢٠) حواري مع روبروت جونك، انظر:
Richard A. Slaughter, "One Man Revolution: Interview with Robert Jungk", *21 Century,* no. 6 (Winter 1992): 40-45.

إنشاء مؤسسات وخلق عمليات للاستبصار

لا يعد الاستبصار، كما لاحظنا، قدرة شخصية فحسب؛ بل قدرة بشرية ضرورية يجب نشرها في المجتمع من أجل الصالح العام، وإدراجها كمكوِّن أساسي في تشكيل السياسات العامة واتخاذ القرارات على جميع المستويات. وسيكون للاستبصار أهمية أكبر خلال القرن الحادي والعشرين. سيأخذ إنشاء بنية تحتية مؤسسية وتدريب الأشخاص القائمين على تنفيذها وقتًا، فيجب أن نبدأ من الآن.

إيجاد دوافع ومعانٍ جديدة

يعد هذا هدف الأعمال المستقبلية النقدية التي تبدأ بنقد الثقافة ثم تنتقل إلى تطوير بدائل معرفية ووجودية. أدت الدوافع والمعاني التي سيطرت على الغرب خلال المائتي سنة الماضية إلى عالم مليء بالمتناقضات؛ مثل: الغنى الفاحش والفقر المدقع، أو المعرفة العلمية المتدفقة والانحدار البيئي. لن تكون عملية اختيار معانٍ ودوافع جديدة سهلة؛ لأن المجموعات القوية ستسعى إلى الحفاظ على مكانتها. لقد تأخرنا كثيرًا في إعادة تعريف المبادئ والممارسات الاجتماعية، وهي أحد مهام القرن الواحد والعشرين.

إعادة اختراع الثقافة من خلال رؤية جديدة للعالم

تملي علينا الطريقة التي نرى بها العالم طريقة استخدامنا له؛ لذا، يجب علينا اختبار الافتراضات المتضمنة في تأسيس الثقافة الصناعية، وتحويلها وتجاهلها عند الحاجة. ستسترجع الرؤية الجدية للعالم الجيد والمفيد من الفترات السابقة؛ مثل مفاهيم العدالة والمساواة وما إلى ذلك. ولكنها ستتضمن أيضًا عناصر أخرى؛ مثل الاستدامة والقيادة ورؤية عالمية طويلة المدى.

اقترحت أنه يمكن للابتكار الثقافي الانبثاق من الحركيات الداخلية للقدرات البشرية العليا، ولكن الحقيقة أننا لا نعلم إذا كان هذا سيحدث حقًّا؛ فلا يمكننا بدقة تحديد نوع الثقافة النابعة من الحاضر. المؤكد هو أنه إذا كان للجنس البشري الاستمرار في عالم صالح للبقاء، وغني بأنواع أخرى من الحيوات، والموارد، والبدائل البشرية والبيئية، سيكون هذا بفضل ثقافة مبينة على افتراضات مختلفة تمامًا عن تلك الحالية.

هل دراسات المستقبليات علمٌ بذاته؟

تتواجد دراسات المستقبليات؛ لأن المستقبل، كما أشار شيل، مُنِح لنا وعلينا الآن تحقيقه[٢١]. وهذا تصريح مُدمِّر لكنه صحيح للأسف. بطريقة ما لدينا خيارات محدودة: فبينما نمتلك مدىً واسعًا من الخيارات التقنية بين أيدينا، أزال تعداد السكان الكبير وحركيات نظمنا الاجتماعية مفهوم أن المستقبل ما هو إلا امتداد طبيعي للماضي والحاضر، ويواجهنا بدلاً عن هذا مدى واسع من الاحتمالات المستقبلية تفرض طلبات جديدة كليًّا على الأفراد والثقافات. سواءً أحببنا ذلك أم لا، أو كنا مستعدين أم لا، وبغض النظر عن القصور الواضح للمنهجيات الحالية، أصبح المسح المستقبلاتي شرطًا لازمًا للحياة الحضارية.

يُقدِّم مجال المستقبليات حلولاً رمزية وفكرية وعملية متعددة لإشكاليات العالم. يُمكن ملاحظة بعض التقدم داخل التقسيم الثلاثي لحقل المستقبليات. يقع على الطرف الصلب من المجال كُتَّاب؛ مثل ميشيل جودو الذي تعكس أعماله منهجية «لا بروسبيكتيف» (الاستبصار)[٢٢]، وهي المنهجية المتقدمة والمطورة في فرنسا؛ أما على الطرف الناعم فنجد ورش عمل ابتكارات المستقبليات لبولدينج وزيجلر وجونك مثمرة للغاية في طريقة تيسيرها لردود أفعال مبدعة وملائمة للخوف والتهديد. تُظهِر الجهود المجمعة للمهتمين بالبيئة والنسويين وصُناع السلام والناشطين الاجتماعيين التقدميين أنه يُمكن خلق المستقبل عن

(٢١) Jonathan Schell, *The Fate of the Earth* (London: Picador, 1982): 174.

(٢٢) Michel Godet, *From Anticipation to Action: A Handbook of Strategic Prospective* (Paris: United Nations Educational Scientific and Cultural Organization, 1993).

طريق الفعل البشري المباشر[٢٣]. لكن جدير بالذكر أن التغيير الناجح لا يحدث فقط من خلال الأفعال المقصودة؛ فهو أيضًا تكراري وتجريبي وغير مؤكد. وتقع التغيرات الصغيرة في الاتجاهات المطلوبة أكثر من التغيرات المنظمة، وكذلك الفشل. وعلى الرغم من كل هذا، فإنه لا يلغي المستقبليات كعلم ومجال للبحث.

لا زالت الآراء السلبية عن المستقبليات منتشرة، ومن المرجح أن تظل كذلك. يستغرق فهم ما وراء المشكلة كثيرًا من الوقت والجهد. وهناك القليل جدًّا من الأعمال المستقبلية التي نُفذت للجمهور العام؛ فالمجال التعليمي والتوعوي لا يزال ينظر إلى الخلف. ولكن من منظور آخر، تبدو هذه السهوات وسوء الإدراك مثل الدقيق لطاحونة الأعمال المستقبلية المسئولة. ينخرط كثير من الكُتَّاب في خطاب جديد له تضمينات واسعة للتطور البشري؛ فعلى سبيل المثال، يقلب كتاب بول هوكينز **علم البيئة التجاري** (١٩٩٣) تفكير الأعمال والمشروعات التقليدي ويُؤسِّس للاقتصاد الاسترجاعي. وبالمثل، يُقدِّم كتاب دوان إلجينز **إحياء الأرض** موجزًا لهذه الرؤية من خلال سرد أنيق لمراحل التطور الثقافي المستقبلي[٢٤].

من المهم الإشارة إلى أعمال أوجليفي في هذا السياق؛ فقد ساعد سرده للسيناريوهات المعيارية فيما يتعلق بتطور الإنسانيات والعلوم الاجتماعية على وضع مشروع المستقبليات في التيار الأوسع للتعليم والأكاديميا[٢٥]. وتعد أعمال كين ويلبير أيضًا وثيقة الصلة؛ لأنها قدمت إطار عمل شامل لفهم الذات يدمج الظاهرة السطحية بالبنية الأعمق. لكن يبقى كثير لدمج مختلف فروع البحث المستقبلي وتقديم ثماره بشكل أكثر فعالية.

طالب ميشيل مارين – عن حق – بمعيار أكاديمي ما بعد حداثي من أجل أن يُكوِّن العاملون بالمجال مجتمعًا من العلماء والباحثين على الصعيد الدولي[٢٦]. ونأمل أن تدفع

---

(٢٣) Warren Ziegler, *Ways of Enspiriting: Transformative Practices for the Twenty First Century* (Denver, CO: FIA International LLC, 1994).

(٢٤) Duane Elgin, *Awakening Earth: Exploring the Evolution of Human Culture and Consciousness* (New York: Morrow, 1993).

(٢٥) Jay Ogilivy, "Futures Studies and the Human Sciences: The Case for Normative Scenarios", *Futures Research Quarterly* 8, no. 2 (1992): 5-65.

(٢٦) Michael Marien, "Cultural Trends, Troubles and Transformations", *Futuresco* 4 (June 1994): 32.

منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) والمنظمات المماثلة في سبيل ظهور مثل هذا المجتمع الدولي متعدد الثقافات.

لن تساعد الادعاءات العلمية وحدها في السعي نحو اكتساب شرعية أكبر للمجال، ولكنها تحتاج إلى عمل أكاديمي جيد وتواصل واضح وصريح وعملية تُرحب بالمشاركة؛ مثل ورش عمل المستقبليات، وربما يكون لنماذج مساعدة الذات؛ مثل مشروع بريب ٢١ (الذي يُساهم في تدريس المستقبليات حول العالم ويمدها بشبكات دعم للممارسين) دور في هذا السياق. كما تلعب الجامعات دورًا رئيسيًّا في تطور المجال ويُمكن اعتبارها مؤسسات للاستبصار بحد ذاتها.

من المهم الإشارة إلى أربع نقاط هنا؛ أولاً: يجب الاحتفاظ برؤية نقدية وموقف رد فعلي لأعمال المستقبليات لطرد الغرور وفتح الباب أمام أفكارٍ جديدة. ثانيًا: تتضمن المقاربات المنتجة حاليًّا بُعد ما بعد منهجي يستكشف أساس ثقافتنا المشتتة بنفس حرصه على استكشاف بنيتها الضخمة المرئية؛ ويعني هذا بوضوح تقليل التركيز على الآلات والماكينات والاهتمام بالافتراضات والالتزامات الثقافية المخفية. ويعد الانتقال من البنى السطحية إلى النماذج ورؤى العالم وطرق المعرفة أساسيًّا للبحث المتعلق بالمستقبليات. ثالثًا: التواصل الواضح والصريح ضروري للغاية. لدينا عدد قليل من كُتَّاب المستقبليات ذوي لباقة وعمق وسعة إدراك يُمكن الاعتماد عليهم بجدية واعتبارهم في منزلة المفكرين. علينا إذًا تشجيع كُتَّاب جدد لتسهيل البحث الأكاديمي. رابعًا: أود إعادة التركيز على ضرورة النظر المتجاوز للوضع الراهن وما يرتبط به من احتلال للحاضر يُشكِّل ويُشوِّه رؤيتنا للعالم بشكلٍ كبير. باعتبار الاحتمالات الحالية للبشرية وكوكب الأرض الذي نعتمد عليه، فأحد الأشياء المسئولة التي علينا فعلها هي اختبار الوضع الراهن. ولكن يُمكن لهذا أن يُشكِّل مخاطرة؛ لأنه يتحدى مفاهيم وممارسات مُحصَّنة ولن يجد موافقة أو دعمًا عالميًّا.

يتبين مما تقدم أن مفاهيم المستقبليات من بين أساسات المجال. وتظهر منهجيات وتطبيقات البحث المستقبلاتي من خلال السؤال الأكاديمي، وتكوين الفرضية، والنقد والابتكار الاجتماعي، والجدلية ومحاولة إعادة تفاوض الالتزامات الثقافية والمعاني

الـمُشكِّلة. وينطبق اختبار الصلاحية التقليدي على هذا العمل: ملاءمة الدلائل، وجودة الجدلية، والإفادة وما إلى ذلك، مما يموضعه بثبات في التيار الرئيسي للحياة الفكرية. ما يميز العمل المستقبلاتي هو أنه يسعى إلى رؤية أوسع للشئون البشرية يمكن الوصول إليها عادةً من خلال حقول علمية ضيقة. تمتلك هذه الرؤية إذا مدىً واسعًا من المنهجيات لاستكشاف إمكانات المستقبلات (وتأثيراتها الواسعة على الحاضر)، مما ينمي ويُوسِّع قدراتنا على الحكم طويل المدى. ولهذه الصفات والنتائج استخدام اجتماعي عظيم.

بما أن دراسات المستقبليات تدعم السؤال الأكاديمي بالطريقة المُوضحة، يُمكن اعتبارها علمًا؛ مثل أي علم آخر. يجب إذًا التعامل معه بهذا الشكل ودعمه أكاديميًّا، خاصةً من خلال تأسيس أقسام جامعية وإدراج مواد ومناهج مدرسية؛ لأنهما عناصر أساسية في بناء المجال كعلم مع كل تحفظاتنا عليها. لكن كل هذه التطورات لن تحل محل تقديم موارد البحث للبث الأكاديمي؛ مثل الجدلية الواضحة، والدلائل الداعمة الصالحة، والنتائج المثمرة لتتحمل مشكلات المستقبليات داخل وخارج الدوائر الأكاديمية. لن تختفي هذه المشكلات، خاصةً وقد دخلنا في «التحول الكبير» بعد العصر الصناعي، بل ستزداد حتميتهم مع كل عام.

نبذة عن المؤلف[٢٧]

ريتشارد أ. سلوتر عالم مستقبليات بارز يعمل ويعيش في ميلبورن، أستراليا. حصل على درجة الدكتوراه في المستقبليات من جامعة لانكستر بإنجلترا عام ١٩٨٢، وكانت أطروحته هذه إحدى أوائل الأطروحات في المجال. عكف بعدها على استكشاف التفكير المستقبلاتي في التعليم والتخطيط الاستراتيجي والقيادة وتحديد القاعدة المعرفية للدراسات المستقبلية.

يشغل حاليًّا منصب مدير مؤسسة الاستبصار الدولية International Foresight بعد أن أسس المعهد الأسترالي للاستبصار The Australian Foresight Institute وترأس الفيدرالية العالمية لدراسات المستقبليات The World Futures Studies Federation. عمل سلوتر أيضًا في تحرير دوريات؛ أهمها *The Foresight, Futures, The Knowledge Base of Futures, Journal of Futures Studies.* والعديد من أبرز الكتب والأبحاث في المجال. تهتم أعماله بتطوير نظريات وممارسات المستقبليات في التعليم، والتحول من العمل المستقبلاتي النظري إلى النقدي بتطوير منهجيات مستقبلاتية نقدية، والتضمينات الاجتماعية للاستبصار.

(٢٧) *Richard Slaughter's Blog*, http://richardslaughter.com.au/

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية